

رأية سوداء: عن المعاني الأخلاقية والقضائية
لسياسة الاعتداء على البيوت السكنية في قطاع
غزة في صيف 2014

تقرير بتسيلم، كانون الثاني 2015



فقدتُ كلَّ عائلتي وبيتي. لم يتبقَّ لي شيء لأصور ولأمر كنْتُ
أستخدمها أنا وعائلتي. لقد فقدتُ كلَّ شيء. لم يتبقَّ لي شيء. فقدتُ
كلَّ شيء في ثوانٍ. فقدتُ كلَّ شيء.
محمندار عطا، الأغا 19، عامًا من سكان معن/خان، يونس طالب جامعي.¹

لا توجد دولة أو جيش آخران في التاريخ بذلا مثل هذه الجهود الكبيرة للاحتناع عن
وقوع ضحايا مدنيين لدى عدوهم.
بنيامين، نتنياهو رئيس الحكومة الإسرائيلية²

¹ سجّل إفادته خالد العزايزة، 2014/9/17.

² أقوال رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو أمام الهيئة العامة للأمم المتحدة، 2014/9/29.

في يوم 2014/7/8، وفي ساعات الظهيرة من اليوم الأول لجولة القتال الجديدة في قطاع غزة، اتصل ممثل الجيش الإسرائيلي بإحدى الشقق في بيت عائلة كوارع في خان يونس. أعلم ممثل الجيش السكان بنية الجيش هدم البيت وطلب منهم إخلاءه فوراً. بعد أكثر من ساعة على ذلك، أطلق صاروخ تحذيري صوب سقف العمارة، فأخلى أفراد العائلة العمارة. لكن العشرات من سكان المنطقة وصلوا التجمهر في الموقع، وحتى إن بعضهم صعدوا إلى السطح أو كانوا في بيت الدرج وهم في طريقهم إلى السطح. عندها أطلق صاروخ والبيت الذي كان مؤلفاً من ثلاثة طوابق وفيه سبع شقق سكنها كلها أفراد عائلة كوارع الموسعة، انهار كلياً. وجرّاء ذلك قُتل تسعة أشخاص، من بينهم خمسة أطفال تراوحت أعمارهم بين 7-14 عامًا.

حتى هنا نتائج استقصاء منظمة بتسيلم عن هذا الهجوم. في ردّه لم يعرض الجيش الإسرائيلي تسلسلاً آخر للأمر، لكنه أوضح أنّ البيت أُستخدم "مركز قيادة لقائد سرّيّة من لواء خان يونس التابع لحماس". وورد من الجيش أيضًا أنّ سكان البيت تلقوا إنذاراً، بالهاتف وبواسطة صاروخ أُطلق على السطح. لكن، ورغم أنّ سكان البيت أخلوه إلا أنهم عادوا إليه في مرحلة لم يعد بالإمكان فيها إزاحة الصاروخ الذي أُطلق إلى البيت عن مساره.³

يجب فحص هذا التفسير في ضمن سياق سياسة إطلاق النار التي اتبّعها الجيش الإسرائيلي أثناء القتال في الصيف: فقصف بيت عائلة كوارع لم يكن إلا القصف الأوّل من بين عشرات الحالات التي قصفت بها المباني السكنية، من الجوّ أو البرّ، ليؤدّي ذلك إلى انهيار البيوت فوق رؤوس عائلات كاملة. وباستثناء حالات معدودة -قصف بيت عائلة كوارع هو أبرزها- امتنعت الجهات الرسمية الإسرائيلية عن تفسير السبب من وراء قصف بيت معيّن. وعليه، فإنّ بتسيلم غير قادرة على معرفة ما إذا كانت هذه البيوت قد قُصفت بسبب كونها تابعة لناشط في حماس، أو لأنّ ناشطاً في الجهاد الإسلامي مكث فيها أثناء الاعتداء، أو لأنّ قذائف أطلقت صوب إسرائيل من موقع مجاور، أو لأيّ سبب آخر.

ومهما كان السبب، فإنّ عمليّات القصف هذه تحوّلت إلى أكثر الصفات المميّزة والمثيرة للذعر للقتال، ومن خلالها قتل أكثر من ربع القتلى الفلسطينيين. بتسيلم لا تملك المعلومات المتعلقة بهويّة المسؤول عن بلورة هذه السياسة، والتي سمّح في إطارها بإجراء هذه الاعتداءات على البيوت، ومن الذي أصدر هذه الأوامر. لكن، وعلى أيّ حال، دَعَم المستوى السياسي الإسرائيلي والمستوى العسكري الإسرائيلي الرفيعان هذه السياسة، وأمر الجيش بالاستمرار بتنفيذها.

لا شكّ في أنّ حماس والتنظيمات الفلسطينية الأخرى قد انتهكت أحكام القانون الإنسانيّ الدوليّ: فنشطاؤها أطلقوا القذائف على مدنيّين إسرائيليين من داخل مناطق مأهولة، وخبّؤوا الأسلحة في داخل المباني السكنية، وامتنعوا عموماً عن فصل أنفسهم عن السكان المدنيّين. لكن، وحتى في ظلّ هذا الواقع، ما تزال إسرائيل مُلزّمة باتّباع أحكام القانون الإنسانيّ الدوليّ (وهي تدّعي بإصرار أنها فعلت ذلك)، إذ أنّ انتهاك أحد الأطراف لهذه الأحكام لا يسمح للطرف الثاني بانتهاكها أيضاً.

لم يدرّ القتال في الصيف المنصرم في دولة أجنبية، بل في منطقة ما تزال إسرائيل تتحمّل المسؤولية أمام سكّانها: فحتى بعد تطبيق "خطة الانفصال" في أيلول 2005، ما تزال إسرائيل تواصل السيطرة على المعابر من القطاع إلى إسرائيل -التي من الممكن الوصول عبرها إلى الضفة الغربية- وعلى المجال الجويّ والبحريّ

³ جيلي كوهن، "استقصاء مقتل المدنيّين في بيت عائلة كوارع: لم يكن بالإمكان تغيير مسار الصاروخ"، هآرتس، 2014/7/10.

للقطاع. وبخكم هذه السيطرة، فإنها ما تزال تسيطر على الأبعاد الهامة في حياة أكثر من 1.7 مليون فلسطيني هم سكان القطاع. وقد استغلّت إسرائيل هذه السيطرة من أجل فرض حصار على القطاع في أيلول 2007 – الذي يسري حتى اليوم- بعد أن سيطرت حركة حماس على السلطة، وردًا على إطلاق القذائف المستمرّ على إسرائيل.

يتمحور هذا التقرير في سياسة قصف البيوت التي انهارت فوق رؤوس ساكنيها، والتي طبّقها الجيش الإسرائيلي أثناء القتال. ولا يتطرق هذا التقرير إلى كلّ القتال ولا إلى أبعاده الأخرى، التي تثير هي الأخرى الأسئلة الصعبة. وينحصر هدف هذا التقرير في محاولة توضيح كيف وما إذا كان ادّعاء صُنّاع السياسات بخصوص التزام إسرائيل بأحكام القانون الإنسانيّ الدوليّ، يستوي مع سياسة قصف البيوت السكنيّة. وقبل مناقشة الأبعاد القضائيّة الخاصّة بهذه السياسة، نورد قصص عدّة عائلات فلسطينيّة تكلت أفرادها في مثل هذه الاعتداءات.

معطيات

بدأ القتال في قطاع غزة يوم 2014/7/8، وبعد قرابة عشرة أيام على ذلك، أي يوم 2014/7/17، أدخل الجيش الإسرائيلي القوات الرّاجلة إلى قطاع غزة، لتمكّن فيه نحو ثلاثة أسابيع. في يوم 2014/8/26، وبعد نحو خمسين يومًا على بدء ما سُمّي "عملية الجرف الصامد" ("العصف المأكول" بتسمية حماس)، انتهى القتال باتفاق لوقف إطلاق النار بين إسرائيل وحماس.

ووفقًا للناطق العسكري الإسرائيلي، "هُوجم على طول العملية أكثر من 5,226 هدفًا إرهابيًا" - منها منصات قذائف وصواريخ ومبانٍ أستخدمت "تكناتٍ عسكرية" و"مراكز قيادة وسيطرة ومخازن أسلحة وبنى تحتية لإنتاج الوسائل القتالية" إلى جانب مؤسسات حكم "داعمة للقتال العسكري".⁴

نتيجة لهذه الهجمات قُتل أكثر من 2,200 فلسطيني وجرح آلاف آخرون. ومن بين القتلى الفلسطينيين مئات الأطفال، ترد أسماء بعضهم في هذا التقرير. لقد كان الدمار الذي لحق بالقطاع هائلًا، في حين كان وضع البنى التحتية والبيوت فيه سيئًا قبل ذلك. ووفقًا لتقديرات منظمات الأمم المتحدة الناشطة في القطاع، هُدم أو تضرّر جدًّا نحو 18,000 بيت، وظلّ أكثر من 100,000 فلسطيني من دون مأوى.⁵ وبعد أكثر من أربعة شهور على انتهاء القتال، ما تزال عمليات الترميم تسير بوتيرة بطيئة للغاية ولا يبدو أنّ نهايتها تلوح في الأفق.

أطلق الفلسطينيون أثناء القتال أكثر من 4,000 قذيفة وقذيفة هاون من قطاع غزة، كان مدى نحو 94% منها يصل حتى 50 كم.⁶ صوّبت هذه القذائف أساسًا نحو بلدات مدنيّة إسرائيلية: كيبوتسات وموشافات (قرى تعاونية) وبلدات ومدن. ونتيجة لذلك، قُتل في إسرائيل خمسة مدنيين، منهم طفل في الرابعة من عمره، وهو دانييل طرجرمن، الذي قُتل جراء قذيفة هاون على بيت عائلته في كيبوتس ناحل عوز. وقد كان أحد القتلى مواطنًا أجنبيًا، إلى جانب مقتل 67 جنديًا أثناء القتال.⁷

قامت بتسليم بجمع إفادات ومعلومات بخصوص 70 حادثة، قُتل في كلّ واحدة منها ثلاثة أشخاص وأكثر كانوا يمكثون في داخل بيوتهم، نتيجة لعمليات القصف التي قام بها الجيش الإسرائيلي. وقُتل في هذه الأحداث في المجمل 606 فلسطينيين، نصفهم تقريبًا (45%) من النساء. في 53 حادثة أخرى قُتل خمسة أشخاص وأكثر؛ في 33 حادثة قُتل بين خمسة-تسعة أشخاص، وفي 11 حادثة قُتل بين 10-14 شخصًا وفي تسع حوادث قُتل 15 شخصًا وأكثر.

ولم تبتّ بتسليم بعد في مسألة مشاركة كلّ قتيل وقتيل في القتال، ولكن من الممكن أن نقدر باحتمال كبير أنّ 70% منهم على الأقل لم يشاركوا في القتال، وفق التفصيل الآتي:

- 93 منهم من الأطفال والرّضع حتى سنّ الخامسة، منهم 13 طفلًا دون السنة الواحدة؛
- 129 منهم أولادًا وبناتًا بين سنّ 5 حتى 14؛
- 42 منهم فتياتًا وفتياتٍ بين سنّ 14 وحتى 18؛
- 135 منهم من النساء في أجيال 18 حتى 60؛
- 37 منهم رجالًا ونساءً فوق سنّ الستين.

⁴ بيان الناطق العسكري الإسرائيلي يوم 2014/8/29، "هدف تلو الآخر: الأحداث المركزية في الجرف الصامد".

⁵ معطيات تلخيصية نشرتها منظمة OCHA- United Nations Office for the coordination of Humanitarian Affairs بخصوص القتال في غزة. يُنظر: <http://www.ochaopt.org/content.aspx?id=1010361>

⁶ ينظر للتقارير الشهرية لشهري تموز وأب في موقع جهاز الأمن العام (الشاباك): www.shabak.gov.il

⁷ للمعطيات عن المدنيين يُنظر: <http://www.pmo.gov.il/TerrorInjured/Pages/default.aspx>، للمعطيات عن الجنود يُنظر في موقع المتحدث العسكري: <http://www.idf.il/1133-20978-he/Dover.aspx>

حالات نموذجية

سنورد فيما يلي التفاصيل المتعلقة بـ 13 حادثة جمعت منظمة بتسليم الإفادات بصدها، من الضحايا ومن شهود العيان، والتي تعكس أبعادًا مختلفة لسياسة قصف البيوت والاعتداء عليها. نحن نورد هذه الأحداث وفق التسلسل الزمني. في غالبية الحالات لم توضح الجهات الرسمية ماهية السبب الكامن من وراء قصف البيت، ولذلك فإنّ منظمة بتسليم غير قادرة على معركة سبب الاعتداء على البيت بالضبط، وما هي المعلومات التي كانت بحيازة السلطات.

قُتل في بعض الحالات جميع الأشخاص الذين كانوا يمكثون في البيت، ولذلك لا يمكننا معرفة ما إذا كانوا قد تلقوا إنذارًا أم لا. وفي حالات أخرى، التي نجا فيها بعض الأشخاص الذين كانوا يمكثون في البيت ساعة الهجوم، ادّعت غالبيتهم أنّهم لم يتلقوا أيّ إنذار. وفي حالة واحدة قال أفراد البيت إنهم سمعوا صاروخ إنذار، لكنهم لم يدركوا أنّه كان موجّهًا إلى بيتهم. وهنا أيضًا، وفي غياب موقف رسمي، تفتقر بتسليم للقدرة على البت فيما إذا كانت الإنذارات قد صدرت فعلاً في هذه الحالات وأنها لم تُفهم، أم أنها لم تصدر البتة - سواء أتم الأمر عمدًا أم في أعقاب خطأ ما.

في الحالات التي اخترناها هنا قُتل 181 فلسطينيًا، انتمى نحو 75% منهم إلى ثلاث مجموعات: قاصرون تحت سنّ الثامنة عشر، نساء أو رجال فوق سنّ الستين عامًا؛ - 33 كانوا من الأطفال والرُضع والأولاد حتى سنّ الخامسة؛ - 39 كانوا أولادًا وبناتًا بين سنّ 5 حتى 14؛ - 12 منهم كانوا فتيانًا وفتيات بين سنّ 14 وحتى 18؛ - 47 منهم كانوا من النساء في أجيال 18 حتى 60؛ - 8 منهم كانوا رجالًا فوق سنّ الستين.

1. قصف بيت عائلة الحاج في مخيم خان يونس للاجئين وقتل ثمانية أفراد من العائلة، 2014/7/10

أسماء القتلى:
الوالدان: محمود لطفي محمود الحاج، 51 عام باسمه عبد القادر محمد الحاج، 51 عام
أولادهم: نجلاء محمود لطفي الحاج، 29 عام اسماء محمود لطفي الحاج، 22 عام عمر محمود لطفي الحاج، 20 عام طارق محمود لطفي الحاج، 18 عام سعد محمود لطفي الحاج، 16 عام فاطمة محمود لطفي الحاج، 14 عام

في ليلة 2014/7/10، وبعد الساعة 1:00 بقليل، أطلقت طائرة صاروخًا صوب بيت عائلة الحاج في مخيم خان يونس للاجئين. وقد انهار البيت وقتل ثمانية من أفراد العائلة: الوالدان محمود وباسمة الحاجة، وأولادهم الستة. ولم يبق على قيد الحياة إلا اثنين من أفراد العائلة، في سنوات العشرين، لأنهما لم يمكثا في البيت أثناء القصف: ياسر الحاج (25 عامًا) وفداء (27 عامًا) والتي تسكن في بيت زوجها. نتيجة لهذا القصف جرح أيضًا عدد من الجيران، ولحقت الأضرار بالبيوت المجاورة، التي لم يعد قسم منها صالحًا للسكن.

وفقاً للإفادات التي جمعتها بتسليم، فإنّ بعض أفراد العائلة خرجوا في ذلك المساء لتناول وجبة العشاء لدى أقرباء، وعادوا إلى بيتهم قرابة الساعة 00:30. محمد شاهين (44 عامًا)، وهو جار عائلة الحاج، وصف ما حدث بعد ذلك:⁸

بعد الساعة 1:00 ليلاً بقليل كان أفراد عائلتي قد ناموا. أنا كنت مستلقيًا في السرير أشاهد لعبة نصف النهائي في كأس العالم بين الأرجنتين وهولندا. كان الوضع في الخارج في تلك الأثناء هادئًا. كنت سعيدًا باللعبة وانتظرت ريثما يحلّ موعد "السحور" التي يبدأ بها يوم الصوم في رمضان.

فجأةً سمعتُ صوت انفجار قويّ جدًّا. شعرتُ بأنّ سريري يهتزّ وكنت على وشك أن أطير من مكاني. شعرتُ بأنّ التفجير كان في بيتنا أو في بيت ملاصق لبيتنا. خرجت النوافذ من أماكنها. النافذة التي كانت قريبة من رأسي خُلعت من مكانها مع الإطار ووقعت في وسط الغرفة. أنا أحمد الله أنها لم تُصب ابنتي التي كانت تنام في الغرفة. امتلأ البيت بالدخان السميك. لم يقطع التيار الكهربائيّ وساد النور، ولكنّ الرؤية كانت صعبة بسبب الدخان. ساد البيت جوٌّ من الرعب، وبدأت بسماع الصراخ من بيوت الجيران.

تأكّدتُ من أنّ جميع الأولاد بخير وجمعتهم سوية من أجل مغادرة البيت. لم أكن على دراية لحظتها أيّ بيت قُصف. خرجنا من البيت كما فعل أخوتي وسائر أفراد العائلة الذين يسكنون إلى جانبنا. حاولنا أن نعرف أيّ بيت قُصف ثم أدركنا أنه بيت عائلة الحاج القريب جدًّا من بيتنا.

وصلنا إلى البيت الذي قُصف. أنا أعرف هذا البيت جيّدًا. لم يظَلّ منه شيء تقريبًا. تهكّم بالكامل. وعلى الشارع كانت تنتشر أجزاء الجثث. إلى جانب بيت عائلة الحاج كان بيت عائلة شكشك، الذي دُمّر هو الآخر، لكنّ الإصابة لم تكن مباشرة ونجّوا من الموت.

أحمد العثمانة (24 عامًا)، جار آخر لعائلة الحاج، وصف الحادثة بما يلي:⁹

في يوم الخميس، وبعد الساعة 1:00 ليلاً، كنتُ في شرفة بيتنا في الطابق الأول. الشرفة تطلّ على بيت جيراننا- عائلة الحاج. كنا أنا وزوجتي وطفلتنا محمد ابن السنة الواحدة، ننام في غرفة النوم، بجوار الشرفة. سمعت صوت طائرات بلا طيار وفجأة رأيت ضوءًا أحمر في كلّ مكان. بعدها سمعتُ صوت انفجار دفعني صوب الأرض بالقوّة، وأغمي عليّ لفترة قصيرة. وعندما استيقظتُ رأيت الناس من حولي يصرخون ويطلبون سيارات الإسعاف. شعرتُ بالأم قويّة في ظهري. سمعت بعض الجيران يقولون إنّ أحد البيوت في المنطقة قُصف وهناك جرحى وقتلى. سألت عن زوجتي وابني وقال أحد الجيران إنهما بخير.

بعد عدّة دقائق، حضرت إلى المكان عدّة سيّارات إسعاف ونقلوني إلى مستشفى ناصر، الكائن جنوبيّ مدينة خان يونس. وفي المستشفى اتضح أنني أصبْتُ بشظايا في الظهر ورضوض في أنحاء جسمي. وعندما سألت عن أبناء عائلتي، قالوا لي إنّ أبي، محمد أحمد عبد القادر العثمانة

⁸ سجّل إفادته إياد حدّاد، يوم 2014/7/11، هاتفياً.

⁹ سجّل إفادته محمد سعيد، يوم 2014/8/30.

(51 عامًا)، أصيب هو الآخر بشظايا في يديه ورجليه وهو نائم، وهو يرقد في المستشفى أيضًا. وقراءة الساعة 8:00 صباحًا خرجنا من المستشفى.

عند وصولي إلى البيت فوجئت بحجم الدمار في المنطقة. فقد دُمّر بيت جارنا محمود كتيّة وكان أفراد الدفاع المدني والمضمدون يفتشون بين الركام عن أحد أفراد العائلة. لم يكن يفصل بين بيتي والبيت الذي قُصف إلا شارع ضيق عرضه متران تقريبًا. وقد لحق ضرر هائل ببيتنا وتهدم قسم منه ولحقت الأضرار أيضًا ببيوت جيران آخرين لأن البيوت متجاورة، ولا تفصل بينها إلا بضعة أمتار معدودة. وقد نجونا بأعجوبة.

2. قصف بيت عائلة أبو جامع في بني سهيلة ومقتل 24 شخصًا من أفراد العائلة وشخص آخر ناشط في حماس، 2014/7/20

أسماء القتلى:	
الجدّة:	فاطمه محمود أحمد أبو جامع، 64 عام
الحفيد:	حسام حسام محمد أبو قينس، 6 اعوام
كنتتها:	شاهيناز وليد محمد أبو جامع، 28 عام
اولادها:	فاطمه تيسير أحمد أبو جامع، 7 اعوام أيوب تيسير أحمد أبو جامع، 6 اعوام ريان تيسير أحمد أبو جامع، 4 اعوام رناد تيسير أحمد أبو جامع، عام واحد نجدود تيسير أحمد أبو جامع، خمسة اشهر
كنتتها:	ياسمين أحمد سلامة أبو جامع، 25 عام
بناتها:	بتول بسام أحمد أبو جامع، 3 اعوام سهيله بسام أحمد أبو جامع، عامان بيسان بسام أحمد أبو جامع، عام واحد
كنتتها:	صباح توفيق محمود أبو جامع، 39 عام
اولادها:	رزان توفيق أحمد أبو جامع، 14 عام جودت توفيق أحمد أبو جامع، 13 عام آبة توفيق أحمد أبو جامع، 10 اعوام هيفاء توفيق أحمد أبو جامع، 9 اعوام أحمد توفيق أحمد أبو جامع، 7 اعوام توفيق توفيق أحمد أبو جامع، 5 اعوام
ابنها:	ياسر أحمد محمد أبو جامع، 27 عام
زوجته:	فاطمه رياض عبد الرحمن أبو جامع، 25 عام
اولادهم:	ساجد ياسر أحمد أبو جامع، 5 اعوام سراج ياسر أحمد أبو جامع، 4 اعوام سراء ياسر أحمد أبو جامع، عامان

في يوم 2014/7/20، ونحو الساعة 19:30، قصف سلاح الجو الإسرائيلي عمارة سكنية تابعة لعائلة أبو جامع في بني سهيلة بمنطقة خان يونس. كانت العمارة مؤلفة من ثلاثة طوابق وفيها ست شقق. في إحدى الشقق كانت تسكن فاطمة أبو جامع، في الرابعة والستين من عمرها، ومعها أحد أحفادها. في الشقق الخمس الأخرى كان يعيش أبناؤها الخمسة مع زوجاتهم وأولادهم. وفي المجمل كان يسكن في العمارة 37 شخصاً.

نتيجة لهذا القصف قُتل 24 شخصاً من أفراد العائلة: الأم فاطمة، ابنها ياسر و أربعة من زوجات ابنائها و 18 من أحفادها . وقُتل في الموقع أيضاً أحمد سهمود، أحد ناشطي حماس، الذي لم يكن من أفراد العائلة.

من بين سكان البيت ظلّ على قيد الحياة 13 شخصاً فقط أربعة من أبناء فاطمة أبو جامع: تيسير وبسام وتوفيق وابنه نور الدين البالغ 4 أعوام، نور الدين، وعبد الله ومعه زوجته ميسر وأولادها السبعة الذين لم يُصابوا لأنهم كانوا يحلون ضيوفاً على مائدة الإفطار لدى والديّ ميسر.

توفيق أبو جامع (36 عاماً)، والذي تكل في القصف زوجته وستة من أولاده السبعة، قال لباحث بتسليم إن قصفاً مدفعياً كثيفاً كان يجري في منطقة سكنهم، لكنهم ظلوا في بيتهم لعدم وجود مكان آخر يلجؤون إليه. وهذا ما رواه عما حدث في يوم القصف:¹⁰

يوم الأحد، 2014/7/20، وهو اليوم الثاني والعشرون من شهر رمضان، كان يوماً صعباً. لقد قصفوا طيلة الوقت المناطق من حولنا، وكانت الشوارع خالية من المارة. كان هناك الكثير من الطائرات الاستطلاعية في السماء، وظللنا في البيت، باستثناء أخي عبد الله وزوجته وأولادهم ذهبوا لتناول الإفطار لدى والديّ زوجته، وأخي تيسير الذي خرج للصلاة في مسجد عمر بن الخطاب على بعد نحو مئة متر من بيتنا.

في الساعة 19:30 تقريباً كنتُ أجلس مع زوجتي والأولاد على مائدة الإفطار. لم أكد أتناول حبة تمر وشرب الماء وفجأة انهار البيت علينا وفقدت وعيي. لم أسمع الانفجار نفسه.

استيقظتُ في المستشفى بعد نحو ساعتين. أصبتُ إصابة طفيفة. سألت أقربائي الذين كانوا في المستشفى عما حدث وقالوا لي إن الجيش الإسرائيلي قصف بيتنا من الجو. وعندما سألتُ عمّن قُتلوا قالوا في البداية أمي فقط، وواحد من أبناء أخوتي. كان لديّ شعور بأنهم يخفون عني الحقيقة وأنّ هناك المزيد من القتلى. واصلت السؤال بعناد واستجواب كلّ شخص يدخل غرفتي.

نحو الساعة الرابعة فجراً عرفتُ أنّ زوجتي التي كانت في نهاية حملها وستة من أولادي قُتلوا. وقد انتشلوا من الركام ابني نور الدين البالغ أربعة أعوام، وهو مصاب برأسه. وعلمت أيضاً أنّ أحد أخوتي وزوجات أخوتي وكلّ أولادهم قُتلوا.

لقد قصفونا من دون أيّ إنذار. لم نتلقَ محادثة هاتفية ولم يطلقوا على البيت صاروخ إنذار، كما حدث أحياناً مع بيوت أخرى.

عملت منذ سنّ الحادية عشرة مع أخوتي من أجل تشييد هذا البيت وبناء حياتنا. فجأةً فقدنا كلّ شيء. عائلتي والبيت أبيدوا خلال ثوانٍ ولم يتبقّ لي إلا ابني نور الدين. كلّ ما تبقي لي عدة صور

¹⁰ سجّل إفادته خالد العزايزة، يوم 2014/9/16.

للأولاد في هاتفي المحمول كنت التقطتها في زفاف قبل حلول رمضان بأسبوع. أنا أفتح هاتفي طيلة الوقت وأنظر إلى الصور وأتذكر أولادي، والمراحل المختلفة في حياتهم.

3. قصف شقة في بيت عائلة القصاص في مدينة غزة وقتل تسع نساء وبنات من العائلة، 2014/7/21

أسماء القتلى:

سميه محمد نصار القصاص، 33 عام
بناتها: اسراء ياسر خضر القصاص، 10 اعوام
ياسمين ياسر خضر القصاص، 7 اعوام
أروى ياسر خضر القصاص، 5 اعوام
سمر ياسر خضر القصاص، 3 اعوام

أمها: فائزة صابر أحمد صيام ، 67 عام (جاءت من حي الزيتون)
كنتها: علياء خضر يوسف صيام، 33 عام (جاءت مع بناتها من حي الزيتون)
بنات كنتها شادية (جاءت معها من حي الزيتون)
لمياء اياد سعد القصاص، 12 عام
نسمة اياد سعد القصاص، 10 اعوام

في يوم 2014/7/21، ونحو الساعة 16:30، هاجم الجيش الإسرائيلي الشقة العليا في بيت عائلة القصاص في مدينة غزة. وقد قُتلت تسع نساء وبنات من أفراد العائلة: ثلاث نساء وست بنات. كانت امرأتان وبنتان منهنّ يمكنّ في البيت بعد أنّ أمرهنّ الجيش الإسرائيلي بترك بيتهنّ.

وفقاً للإفادات التي جمعتها بتسليم، وقع الهجوم من دون أيّ إنذار، وكان هجوماً دقيقاً: فقد هدم جزءاً من الغرف في الطابق الأخير. أما سائر العمارة المؤلفة من ثلاثة طوابق فلم يتضرّر.

سكن في العمارة 24 شخصاً: في الطابق الأول سكن والدا العائلة مع ابنتهما هدى. وفي الطابقين الآخرين سكن أولادهما المتزوجون: سلامة وسليم وياسر، مع عائلاتهم.

وفي أثناء القتال لجأ إلى العمارة 17 فرداً آخر من العائلة تركوا بيوتهم في احياء وزّع فيها الجيش الإسرائيلي مناشير تدعو السكان لترك بيوتهم: الابنة شادية، من سكان حيّ الزيتون، وصلت مع أولادها السبعة وسكنت في بيت والديها في الطابق الأول. ومكث زوجها إياد في إحدى مدارس الأونروا التي أستخدمت كملجأ؛ ووصلت الابنة أسماء، من سكان حيّ الشجاعية، مع زوجها وولديها وسكنت في الطابق الثالث مع عائلة أخيها قاسم.

وفي الطابق الأخير سكن الابن أحمد وزوجته سمية الحبل، وأولادهم التسعة. وفي أثناء القتال حضر للسكن معهم أفراد عائلة سمية: أمها وكنتها ومعها أولادها الثلاثة، من سكان حيّ الزيتون.

مكث في ساعات بعد الظهر عدد من نساء العائلة والأولاد في الشقة على السطح، إذ كانوا يُعدّون هناك وجبة الإفطار. وكان سليم القصاص (28 عامًا) في تلك الأثناء في شقته بالطابق الثالث، برفقة أفراد آخرين من عائلته. وقد وصف ما حدث كالآتي:¹¹

فجأةً سمعنا صوت انفجار من جهة برج داود الموجود على بعد نحو مئتي متر منّا من الشمال، وأيضًا من صوب برج الظافر الذي يقع على بعد نحو مئتي متر. خرجنا أبي وأخي وياسر وأنا كي نرى ما حدث. وبعد خمس دقائق سمعنا صوت انفجار قوي. نظرنا إلى البرجين والمباني القريبة ولكننا لم نرَ أيّ شيء. فجأةً وقعت علينا الحجارة من بيتنا وعندها فقط أدركنا أنّ بيتنا هو الذي قُصف. صعدنا ياسر وأنا بسرعة إلى شقة ياسر، وانضمّ أخي سلامة إلينا في الطريق. رأينا النار في داخل الشقة وعدّة جثث كانت ملقاة في داخلها.

نتيجة للانفجار قُتلَت تسع فتيات ونساء. أمّا سار الأولاد الذين كانوا يمكثون في البيت فأصيبوا بالحروق، حروق بعضهم جسيمة، نتيجة للنيران التي اندلعت بعد انفجار قنبلة الغاز التي كانت في الشقة. وهذا ما قاله سليم حول ما حدث بعد ذلك:

بدأنّا بنقل المصابين إلى الشارع. نقلناهم بسيارات أهل الحيّ وسيارات الإسعاف التي وصلت إلى الموقع. بعدها بدأنّا بجمع أشلاء جثث القتلى. كان الأمر صعبًا جدًّا. وعندما رأى أخي ياسر جثث أفراد عائلته أغمي عليه. وقد فقد زوج أختي شادية الوعي أيضًا، بعد أن رأى جثتي ابنتي لمياء ونسمة.

نقلنا ياسر وزوج أختي إياد إلى مستشفى الشفاء، وفي اليوم ذاته دفنّا الجثث لأنّ الوضع كان صعبًا، ولم تكن في المستشفى أماكن كافية في غرفة الموتى.

4. قصف عمارة مكاتب في حيّ الرمال بمدينة غزّة وقتل 12 شخصًا: 11 فردًا من عائلتي درباس والكيلاني وناشط في الجهاد الإسلامي، 2014/7/21

أسماء القتلى:

الاخوة: عابدة شعبان محمد درباس، 47 عام
سورة شعبان محمد درباس، 41 عام
محمود شعبان محمد درباس، 37 عام
ايناس شعبان محمد درباس، 30 عام

تغريد شعبان محمد الكيلاني، 44 عام وزوجها: إبراهيم ذيب أحمد الكيلاني، 52 عام
اولادهم: ريم إبراهيم ذيب الكيلاني، 11 عام
سوسن إبراهيم ذيب الكيلاني، 10 اعوام
ياسين إبراهيم ذيب الكيلاني، 9 اعوام
ياسر إبراهيم ذيب الكيلاني، 7 اعوام
الياس إبراهيم ذيب الكيلاني، 3 اعوام

¹¹ سجّل إفادته خالد العزايزة، يوم 2014/10/16.

في يوم 2014/7/23 أنبا موقع جهاز الأمن العام (الشِّبَاك) بإصابة عدة شخصيات رفيعة المستوى من حركة الجهاد الإسلامي، من بينهم شعبان خالد شعبان الدحدوح، الذي قيل إنه قائد كتيبة في لواء مدينة غزة التابع للتنظيم.¹² قُتل الدحدوح في ساعات المساء المبكرة في يوم 2014/7/21، عندما قصف الجيش الإسرائيلي الطوابق الأربعة العلوية في عمارة المكاتب، "برج السلام"، المؤلفة من ثمانية طوابق في حي الرمال في قطاع غزة. وإلى جانب الدحدوح قُتل في القصف 11 فردًا من عائلتي درباس والكيلاني، من بينهم خمسة أطفال.

في الإفادة التي أدلى بها المحامي عبد الكرم صيام (38 عامًا)، أمام باحث بتسيلم، قال إنه ترك هو وأفراد عائلته بينهم في حي التفاح في غزة بسبب القصف، ولجأوا إلى مكتبه في الطابق الثاني من عمارة المكاتب التي قُصفت. وجاء في أقواله إنه في يوم 2014/7/21، وبعد وجبة الإفطار، أدى الصلاة عند مدخل العمارة مع أبيه وابن عمه. وقال واصفًا ما حدث بعدها:¹³

صلينا ثم جلسنا قليلاً وفجأة سمعنا أصوات تهتم وانكسار نوافذ. سمعت أيضاً صراخ أطفال وعندها فقط أدركت أنهم يقصفون البرج. فتحت باب العمارة وبدأت بمناداة الناس للخروج وعندها رأيت زوجتي وأختي وأمي وأولادي ينزلون من المكتب إلى القسم السفلي من البرج. كانوا مذعورين ومزعجين ويصرخون ويبكون من الخوف. وقد انهار الطابقان الرابع والخامس في العمارة.

بعدها وصل رجال الدفاع المدني من أجل تخليص المصابين ونقل الجثث. ثم ذهبنا إلى البيوت المجاورة. تأكدنا من أن كل الأطفال وأفراد العائلة بخير وعندها وصل ابن خالي وأخذنا إلى بيتهم في حي النصر في مدينة غزة.

التجأت عائلتنا درباس والكيلاني إلى أحد المكاتب في الطابق الخامس في العمارة، وقد فروا من بيوتهم في بيت لاهيا، وكان مجمل تعدادهم 11 شخصاً: خمسة أخوة وأخوات من عائلة الكيلاني، وإبراهيم درباس، زوج تغريد الكيلاني، إحدى الأخوات، وأولادهم الخمسة الذين تراوحت أعمارهم بين 3-11 عامًا. قبل أن ينتقلوا للسكن في عمارة المكاتب كانوا قد فروا إلى بيت أخيه أحمد في حي التفاح في غزة، إلا أنهم اضطروا للفرار من هناك أيضاً بسبب القصف وإطلاق النار المتواصلين. وقد قُتلوا جميعهم.

5. قصف بيت خال في مخيم جباليا للاجئين، انهيار على بيت عائلة أبو عطية ليقتل خمسة من أفراد العائلة، 2014/7/24

أسماء القتلى:

الوالدان: إبراهيم عبدالله إبراهيم أبو عيطه، 66 عام
جميله سليم عيد أبو عيطه، 55 عام
اولادهم: محمد إبراهيم عبد الله أبو عيطه، 32 عام
أحمد إبراهيم عبد الله أبو عيطه، 31 عام
ابن احمد: ادهم أحمد إبراهيم أبو عيطه، 4 اعوام

¹² يُنظر: <http://www.mako.co.il/news-military/security-tzuk-eitan/Article-2acd8a1f0446741004.htm>

¹³ سجّل إفادته محمد صباح، يوم 2014/8/19.

في يوم 2014/7/24، ونحو الساعة 1:30 ليلاً، قصف سلاح الجو الإسرائيلي بيتاً في مخيم جباليا للآجئين شماليّ القطاع. أحد أبناء صاحب البيت الذي قُصف هو ناشط في الذراع العسكرية التابعة لحماس، من الممكن ان يكون هذا هو سبب القصف. ويتّضح من الإفادات التي جمعتها بتسليم أنّ الجيش الإسرائيلي أطلق صاروخ إنذار، إلا أنّ السكان في المنطقة لم يعرفوا البيت الذي أطلق عليه الصاروخ بالتحديد، ولم يدركوا من منهم كان عليه إخلاء البيت.

البيت، والذي كان خالياً دمر كلياً. وقد لحقت الأضرار بعشرات البيوت الإضافية في المنطقة. ومن بين البيوت التي أصيبت بيت عائلة أبو عطية، إذ قُتل خمسة من أفراد العائلة، من بينهم طفل في الرابعة من عمره.

تعيش عائلة أبو عطية في بيت مؤلف من ثلاثة طوابق: في الطابق الأول كان يسكن إبراهيم وجميلة أبو عطية مع أولادهم الأربعة؛ في الطابق الأرضي وفي الطابق الثاني يسكن أولادهم الثلاثة المتزوجون مع عائلاتهم. وفي المجل كان يسكن في البيت عشرون نفرًا.

وقال محمد أبو عطية (30 عامًا) الذي يسكن الطابق الأرضي، لباحث بتسليم، إنهم سكنوا البيت منذ 15 عامًا. ويقول إنّ المنطقة التي يقع فيها البيت كانت هادئة نسبيًا وقد نجحوا في عيش حياة شبه عادية أثناء القتال، بما في ذلك إجراء المشتريات في السوق. وقال إنهم قاموا حتى بدعوة قريب لهم يعيش بجوار الحدود الشرقية، حيث المنطقة المعرضة للنار المدفعية، للالتجاء إلى بيتهم. وهذا ما قاله محمد حول ما حدث قبل إصابة البيت:¹⁴

جلسنا جميعًا في الطابق الأول لدى والديّ، وكنا نتحدّث معهم وكنا فرحين. ونحو الساعة 23:30 نزلنا أنا وزوجتي وأختيّ الآء ومنال إلى شقّتي في الطابق الأرضي. كنتُ أشاهد الأخبار حين قالوا إنّ وقفًا لإطلاق النار قد يُبرم في الأيام القليلة.

ونحو الساعة 1:30 بعد منتصف الليل سمعنا صوت انفجار قويًا وقريبًا جدًّا. نزل أخي أحمد وزوجته وأولاده إلى شقتي، لأنّ الطابق الأرضي أكثر أمانًا. بعدها نزل والداي أيضًا وأخي إسماعيل وأخي محمد مع عائلته. جلسنا على الفراش وعلى الكنبات ولعب الأولاد بجانبنا. عندها سمعنا صوت إطلاق صاروخ آخر، يشبه صوت صاروخ الإنذار من الطائرة بلا الطيار. أردنا الخروج من البيت لنرى أيّ بيت وقع عليه صاروخ الإنذار، ولكنّ أبي رفض ولم يسمح لنا بالخروج، فعدنا للجلوس.

بعد أقلّ من دقيقتين لم أعد أشعر فجأة بأيّ شيء. في الغداة استيقظتُ ورأيت أنني في المستشفى. شعرت بالآلام. قال لي الأطباء إنهم قصفوا البيت المجاور لبيتنا وإنّ سائر أفراد عائلتي أصيبوا إصابات متفاوتة. رأيت أخي إسماعيل وقال لي إنّ زوجتي موجودة في العلاج المكثّف.

بعد عدّة ساعات خرجت من المستشفى. عدتُ إلى بيت حمي في منطقة تل الزعتر في مخيم جباليا للآجئين. وبعد عدّة ساعات قالوا لي إنّ هناك قتلى في عائلتي. كنتُ مصدومًا عند سماعي ذلك، وأصبت بانهايار. اللحظة التي سمعت أنّ أفراد عائلتي قُتلوا كانت لحظة بالغة الصعوبة.

نتيجة للإصابة التي حلّت بالبيت الذي دُمّر جزئيًا، قُتل والدا محمد أبو عطية، واثنتان من أخوته المتزوجين وواحد من أبناء أخيه.

¹⁴ سجّل إفادته محمد صباح، يوم 2014/9/11.

6. قصف بيت عائلة الفار في مخيم المغازي للاجئين ومقتل تسعة من أفراد العائلة، 2014/7/28

أسماء القتلى:	
الوالدان:	سالم محمد بدوي الفار، 58 عام
	زينات حسن احمد الفار، 58 عام
بناتهم:	امل سالم محمد الفار، 35 عام
	جهان سالم محمد الفار، 28 عام
	نيفين سالم محمد الفار، 18 عام
	حنان سالم محمد الفار، 15 عام
كنتهم:	رهام حسين أحمد الفار 26 عام
اخوها:	رمزي حسين أحمد الفار، 23 عام
امها:	فاطمه حسن أحمد الفار، 55 عام

في يوم 2014/7/28، ونحو الساعة 23:00، قُصف بيت سكني من طابقين تابع لعائلة الفار في مخيم المغازي للاجئين في مركز القطاع، وكان ضحية القصف تسعة من أفراد العائلة.

سكن في الطابق الأول من البيت الوالدان سالم وزينات الفار مع ستة من أولادهما وحفيديهما. وفي الطابق الثاني سكن ابنهم احمد وزوجته رهام، اللذان تزوجا في شباط 2014 وسكن معهم فاطمة، ام رهام وأخوها رمزي. لم ينجح أم وأخ رهام اللذان حضرا حفل الزفاف قادمين من الأردن، بالخروج من القطاع والعودة إلى بيتهما بسبب إغلاق معبر رفح. وسكن البيت في المجلد 14 شخصاً.

ليلة 2014/7/28 مكث كل أفراد العائلة، باستثناء الابن أحمد، في الطابق الأول للبيت والذي أعتبر أكثر أماناً. وقال محمود الفار (23 عاماً)، أحد افراد العائلة لباحث بتسيلم:¹⁵

كانت ليلة عصبية، تخللها القصف المتواصل لمناطق مختلفة في مخيم اللاجئين. كان الوضع مخيفاً جداً وكان التيار الكهربائي مقطوعاً. فجأة سمعنا صوت انفجار كبير، من دون أي إنذار مسبق. ولشدة صوت الانفجار لم أسمع شيئاً ولم أعرف بالضبط ما يحصل في تلك اللحظة. استيقظت بعد خمسة أيام لأكتشف أنني راقد في المستشفى. أصبت برأسي وبكسور في يدي اليسرى واخترقت شظايا أنحاء جسدي.

وقد نجت إيمان الفار (33 عاماً) من القصف، وقالت هي أيضاً لتسيلم إن أفراد العائلة اجتمعوا في الطابق الأول للبيت. وقالت:¹⁶

جلسنا بعد العشاء وتحدثنا عن القتال والخوف من الأحداث التي وقعت. فجأة وقع انفجار قوي جداً وشعرت بأن الصالون قُسم إلى قسمين. بعدها لم أر شيئاً، لا أختي حنان التي كانت إلى جانبي ولا أحد آخر غيرها. سمعت صوت أخي محمود. نادى على أخي أحمد ورمزي وطلب المساعدة. بعدها زحفت تحت عمود في البيت كان مائلاً وحماني من الركام. مددت يدي إلى الأمام. لم أر أي شيء بسبب الظلام والغبار. بدأت بتلمس طريقي بين الركام حتى وصلت إلى بيت جارنا، يوسف موسى، الذي يفصل بينه عن بيتنا شارع عرضه خمسة أمتار تقريباً. وصلت إليهم وأجلسوني.

¹⁵ سجّل إفادته خالد العزايزة، يوم 2014/8/28.

¹⁶ سجّل إفادتها خالد العزايزة، يوم 2014/8/31.

كنت مصابة بجراح وبدأ قريبيهم بتقديم الإسعاف الأولي لي. غسلت الغبار والتراب والدم عن وجهي.

طلبوا سيارة إسعاف وصلت لنقلي إلى مستشفى شهداء الأقصى في دير البلج. لم أعرف ما حلّ بعائلتي. خضعت في المستشفى للفحوصات، وكنت مصابة بشظايا في رجليّ وبرضوض في جسمي.

وقالت إيمان لبتي سليم إنها لم تعرف بموت أفراد عائلتها إلا لاحقاً:

كنتُ مصابة جسمانيًا ونفسيًا. وبسبب الشظايا في رجليّ لم أقوَ على السير لثلاثة أسابيع. ومن وقتها تحسّن وضعيّ الجسمانيّ لكنني ما أزال أعاني الصدمة وأنا أبكي في كلّ مرّة أتذكّر فيها عائلتي.

أنا مشتاقة لكلّ أفراد عائلتي، لكنني أشتاق لأختيّ حنان ونيفين أكثر من غيرهما، لأنني كنت أتقاسم معهما غرفة النوم. كانت علاقتنا قويّة جدًّا وكانت قريبتين منّي جدًّا. كانت نيفين تأمل بدراسة الشريعة في الجامعة. حنان انتقلت للصفّ العاشر وكانت المدلّلة الأكبر في البيت. قالت لي إنها ترغب بالانتقال من الدراسة المسائيّة في المدرسة إلى الدراسة الصباحيّة كي تدرس لدى أختي صابرين، التي تعمل مدرّسة.

7. قصف ثلاثة بيوت تابعة لعائلة أبو جبر في مخيم البريج للاجئين ومقتل 19 شخصًا، منهم 17 فردًا من عائلة أبو جبر، 2014/7/29

أسماء القتلى:

الوالدان: حمدان محمد سليمان أبو جبر، 77 عام
فضة غنام حسان أبو جبر، 60 عام
اولادهم: أحمد حمدان محمد أبو جبر، 36 عام
زوجته: سميّه عبد الرحمن محمد أبو جبر، 32 عام
ابنتهم: حلا أحمد حمدان أبو جبر، 4 اعوام
جبر حمدان محمد أبو جبر، 26 عام
دينا حمدان محمد أبو جبر، 25 عام (وصلت مع اولادها من مخيم اللاجئين المغازي)
ابنها: محمد رائد محمد أبو جبر، 3 اعوام
ابنتها: سما رائد محمد أبو جبر، عام واحد
عائشه حمدان محمد اسعد (أبو جبر)، 23 عام (وصلت من مخيم اللاجئين البريج)
فضل حمدان محمد أبو جبر، 19 عام
حفيدتهم: ثقي صلاح خليل أبو عيسى، 5 اشهر (وصلت مع امها من مخيم اللاجئين الشاطئ)

قتل في البيت المجاور

أنوار محمد سالم أبو جبر، 35 عام
زوجته: ليلى كفاح محمود أبو جبر، 22 عام
بناتهم: لين أنور محمد أبو جبر، 3 اعوام
سلمى أنور محمد أبو جبر، عام واحد
أنوار محمد سالم أبو جبر (أخت أنور)، 25 عام

أحمد عمر سعيد عبد العال، 23 عام
أيمن صلاح سعيد أبو عون، 25 عام

ليلة 2014/7/29، ونحو الساعة 00:30، قصف الجيش الإسرائيلي ثلاثة بيوت في مخيم البريج لللاجئين، تابعة لعائلة أبو جبر. كان احد البيوت خاليًا من السكان بعد أن لجأ سكانه إلى أحد الملاجئ المؤقتة التي أقيمت في القطاع.

قُتل في القصف 17 فردًا من عائلة أبو جبر وشخصين آخرين قد التقيا ذلك المساء مع احد افراد عائلة أبو جبر.

هذا ما قاله عمر عبد العال (55 عامًا)، جار ووالد أحمد العال الذي قُتل في القصف، حول الحادثة:¹⁷

في ساعات المساء من يوم الثلاثاء، 2014/7/29، كنتُ في البيت مع اولادي، وكان عيد الفطر قد حلّ. كانت في أيام القتال عمليات قصف من الجوّ وناار مدفعية صوب مناطق كثيرة في مخيم البريج لللاجئين. وفي اليوم نفسه، تركّز القصف في الجزء الشمالي من المخيم.

قراءة الساعة 23:00 خرج أحمد من البيت وبقيتُ أنا مع سائر أفراد العائلة. وفي الساعة 00:30 ليلاً سمعت صوت انفجار قويّ جدًّا لدرجة أنني اعتقدتُ أنّ القصف استهدف بيتي أنا. خرجتُ من البيت مع عائلتي وخرج جيراني أيضًا. وجدنا أنّ بيت حمدان أبو جبر، الذي يبعد مئة متر أو أقلّ عن بيتنا شرقًا، لم يعد موجودًا. لقد تهمّ كلبّة.

كان حمدان وفداء أبو جبر يسكنون مع ثلاثة من أولادهم، اثنان منهم متزوجان ولهم أولاد -لأولهما ولد عمره عام وللثاني ثلاثة أولاد تتراوح أعمارهم بين عام ونصف العام وبين أربعة أعوام. وفي أثناء القتال، كان يسكن البيت أيضًا بناتهما الثلاث المتزوجات مع اولادهم، اللاتي هربن من بيوتهنّ في مناطق أخرى في القطاع. أُعتبرت أكثر خطرًا: نجاح (30 عامًا)، من سكان مخيم الشاطئ لللاجئين المجاور لمدينة غزة، والتي حضرت إلى البيت مع ابنتيها الاثنتين، ودينا (29 عامًا) وحامل شهرها التاسع، من سكان مخيم المغازي لللاجئين في مركز القطاع، وحضرت مع ولديها الاثنتين، وعائشة الحامل، التي حضرت من بيتها في منطقة أكثر خطورة في مخيم البريج لللاجئين. وفي المجمع كان يسكن البيت 18 شخصًا أثناء القتال. وقد قُتل بقصف البيت حمدان وفداء أبو جبر، ودينا وولداها، وأختها عائشة وابنة نجاح التي كانت تبلغ العام ونصف العام.

أما في البيت الثاني الذي أصيب بالقصف فقد كانت تعيش هنية أبو جابر، وهي أرملة عمرها 65 عامًا، مع ابنتها وابنها وزوجته وابنتيها الاثنتين، الأول عمرها عام والثانية ثلاثة أعوام. لم ينجُ من القصف إلا هنية فقط وهذا ما قالته لباحث بتسليم حول تسلسل الأحداث في تلك الليلة:¹⁸

في تلك الليلة جرى الكثير من القصف في أجزاء مختلفة من مخيم البريج لللاجئين. ومع غروب الشمس ذهب ابني أنور ليشتري لنا العشاء، وأكلنا سوّية، أنا وابنتي أنوار وابني أنور وزوجته لينا وطفلتاه الرضيعتان، لين وسلمى. كان عيد الفطر قد حلّ واحتفلنا سوّية. بعدها صعد أنور وزوجته لينا إلى شقتهم، وظلت الطفلتان معي ومع أنوار.

¹⁷ سجّل إفادته خالد العزايزة، يوم 2014/9/1.

¹⁸ سجّل إفادتها خالد العزايزة، يوم 2014/9/1.

قراءة الساعة 00:30 انقطع التيار الكهربائي، وعندها انهار البيت برُمته علينا فجأة. لم أسمع أي انفجار. غبت عن الوعي. في الغداة استيقظت واكتشفت أنني في مستشفى شهداء الأقصى في دير البلج. أصيبت رجلي اليسرى إصابة بالغة وأصبت إصابة كبيرة في الرأس. عندما استيقظت سألت عن أولادي. كان ابن أخي عدنان لدي، وبعد أن أصررتُ على السؤال قال لي إنهم قُتلوا جميعًا: ابنتي وابني وزوجته وأولادهما. في الغداة وصلت ابنة أخي وقالت لي إن سائر أفراد العائلة قُتلوا.

رقدتُ في المستشفى ثلاثة أيام. كنتُ في وضعيّة نفسانيّة وجسديّة عسيرة للغاية. فقدتُ كلّ عائلتي وبيتي. أنا أعيش الآن بجانب أطلال البيت، في بيت أخي محمود.

لقد قصفوا بيوتنا من دون أيّ إنذار مسبق. لم يتصلوا بنا هاتفيًا كما فعلوا مع أناس آخرين، ولم يطلقوا صاروخ إنذار ولم يُعلموا الجيران أيضًا. كان ابني أنور يُعيلني، والآن ظللتُ وحيدة، مُستّة ومصابة. لقد فقدتُ كلّ شيء. أنا لا أعرف كيف سأعيش بعد الآن.

وتحدّث أيضًا قريب العائلة نهاد أبو جبر (45 عامًا)، الذي يعيش بجوار البيوت التي قُصفت، عن أحداث تلك الليلة:¹⁹

في يوم الثلاثاء، 2014/7/29، خلدتُ للنوم. وفجأة سمعتُ دويّ انفجار كبير. قمتُ مذعورًا. كان البيت مليئًا بالغبار والدخان والتيار الكهربائي مقطوعًا. بدأتُ بتلمّس طريقي بالعمّة. خرجتُ من الغرفة ورأيتُ الدمار. أدركتُ أنّ القصف وقع في بيتنا. دخلتُ غرفة والدتي وأختي. استعنت بمصباح ووجدتهما الاثنتين تحت الركام. ووجدت تحت الركام أيضًا يامن، ابن ابن عمّي الرضيع، الذي طار مع الركام من بيته إلى بيتنا، ما قدره مسافة مترين تقريبًا. وصل عدد من الجيران وساعدوني على إخراج الثلاثة. أصيبت أمّي وأختي بإصابات طفيفة، وعانى يامن الحروق، وإصابات في الرأس وكسورًا في اليد والرجل اليسرى.

نظرتُ حولي ورأيت أنّ بيت عمّي حمدان هُدم كليّة وكذا بيت أرملة عمّي حسني، إذ خُفرت بئر عميقة في الموقع الذي قام عليه البيت. وقد هُدم أيضًا بيت العمّة هنيّة بالكامل وتطايرت شظاياها على البيوت المجاورة. بدأنا أنا والجيران بالبحث عن ناجين آخرين. بحثنا بأيدينا واستخدمنا ضوء الهواتف المحمولة. نجحنا بتخليص عدّة أشخاص من العائلة وبعدها بدأنا بإخراج جثث القتلى {...}

لقد قصفونا من دون أيّ إنذار، ومن دون مكالمة هاتفية ومن دون صاروخ إنذار.

8. قصف عمارة الدّالي في خان يونس ومقتل 34 شخصًا، 2014/7/29

أسماء القتلى:
عائلة النجار:
جميل احمد حامد النجار، 47 عام
اولاده: وائل جميل احمد النجار، 25 عام
ابنت وائل: ليالي وائل النجار، 3 اعوام
ليالي وائل النجار، 3 اعوام
ولاء جميل احمد النجار، 22 عام
اية جميل احمد النجار، 19 عام

¹⁹ سجّل إفادته خالد العزايزة، يوم 2014/9/1.

دعاء جميل احمد النجار، 17 عام
محمد جميل احمد النجار، 12 عام

عائلة معمر:

احمد مرزوق نادي معمر، 32 عام واولاده:
يزن احمد مرزوق معمر، 3 اعوام
حلى احمد مرزوق معمر، عامان
اخته هند مرزوق نادي معمر، 30 عام

عائلة بريكة:

صبحية مؤنس محمد بريكة، 58 عام
ابنها: احمد فايز احمد بريكة، 31 عام وزوجته باسمه سالم سليم بريكة، 35 عام
بناتهم: جنى احمد فايز بريكة، عامان
لمى احمد فايز بريكة، عام واحد
ابنها: اسامة فايز احمد بريكة، 16 عام
عائلة احمد سلمان احمد ابو عامر:
احمد سلمان احمد ابو عامر، 40 عام وزوجته منى حجاج ابراهيم ابو عامر، 40 عام
اولادهم:

محمد احمد سلمان احمد ابو عامر، 11 عام
مرح احمد سلمان احمد ابو عامر، 10 عام
ياسر احمد سلمان احمد ابو عامر، 8 اعوام
مروى احمد سلمان احمد ابو عامر، 5 اعوام
سليمان احمد سلمان احمد ابو عامر، 3 اعوام

عائلة وضاح حسن احمد ابو عامر:

وضاح حسن احمد ابو عامر، 39 عام وزوجته عروبة سليمان احمد ابو عامر، 41 عام
اولادهم:

عمر وضاح حسن ابو عامر، 12 عام
عبد الغني وضاح حسن ابو عامر، 10 اعوام
عماد وضاح حسن ابو عامر، 9 اعوام
عيسى وضاح حسن ابو عامر، 7 اعوام
عز الدين وضاح حسن ابو عامر، 5 اعوام

اخوة وضاح:

احمد حسن احمد ابو عامر، 35 عام
محمد حسن احمد ابو عامر، 19 عام
قتلت في البيت المجاور
اية سامي انور الرمالي، 9 اعوام

في يوم 2014/7/29، ونحو الساعة 8:00 صباحًا، قصفت طائرة عمارة الدالي في مدينة خان يونس، المؤلفة من ثلاثة طوابق. احتوى الطابق الأول روضة أطفال، وفي الطابقين الثاني والثالث كانت أربع شقق، ثلاث منها مؤجرة. وفي المجلد سكن العمارة 21 شخصًا، زاد عليهم أثناء القتال 23 شخصًا من أفراد عائلة أبو عامر من عسان الكبيرة، التي لجأت إلى روضة الأطفال. هُدمت العمارة في القصف حتى الأساس

وأصيب أيضًا بيوت مجاورة. قُتل في عمارة الدالي نفسها 33 شخصًا، 18 منهم من القاصرين: 7 أفراد من عائلة النجار، أربعة أشخاص من عائلة معمّر، 6 أشخاص من عائلة بريخة، 16 شخصًا من عائلة أبو عمّار، وقُتل أيضًا آية رملوي (8 أعوام) في عمارة مجاورة، وأصيب أناس في المباني المجاورة الأخرى.

تعيش هناء النجار (46 عامًا) في العمارة بالإيجار مع زوجها وأولادها الثمانية وحفيدتها الوحيدة. وتحدّثت مع باحث بتسليم عن الصباح الذي فقدت فيه أغلب عائلتها:²⁰

يوم الثلاثاء، 2014/7/29، كان ثاني أيام عيد الفطر. كنّا ننام جميعًا في الصالون لأنّنا شعرنا بأنّه أكثر أجزاء البيت أمانًا. عندما استيقظت كنت مدفونة تحت الركّام والرمال. كان رأسي وحده يُطل من خارج الركّام. كانت رجلاي وظهري تؤلمني جدًّا، وكنت أتنفس بصعوبة. وكانت من حولي مجموعة شبّان كانوا يحاولون تخليصني. حفروا حولي وأزالوا عني الركّام. حاولت النظر من حولي والعثور على أولادي، لكنني لم أرَ أحدًا منهم. قلت للشبان: "أتركوني، إذهبوا للبحث عن أولادي"، لكنهم واصلوا الحفر من حولي.

بعد عدّة دقائق رأيتُ شابًا يحمل ابنتي نور، ثم وضعها قريبًا منّي. كان شعرها ووجهها مغطين بالغبّار، وكانت تبكي وتصرخ. رأيت مجموعة أخرى من الشبان تحاول تخليص ابنتي إلاء التي كانت مدفونة تحت الركّام. سمعتهم يقولون إنّها تتنفس وإنها ما زالت على قيد الحياة. في هذه الأثناء كان الناس ما زالوا يحفرون حولي وحاولوا تخليصني. اعتقد أنني غبت عن الوعي بعدها لأنّ الأمر الذي أتذكّره أنني استيقظت على سرير في المستشفى.

حدث ذلك نحو الساعة 8:30. كانت أختاي بجانبني تبكيان. سألتهما عمّا وحدث وأين زوجي وأولادي. في البداية حاولتا إخفاء ما حدث عني وقالتا إنّ أفراد عائلتي أصيبوا فقط. وقالتا لي إنّ طائرة حربيّة قصفت البيت أثناء نومنا.

فيما بعد قال أفراد العائلة لهناء إنّ زوجها وخمسة من أولادها وحفيدتها قُتلوا جراء القصف. وقالت لباحث بتسليم:

في ذلك الصباح، ونحو الساعة 10:00، أخذوني إلى بيت أخي، محمد عطية الدالي. صرختُ وبكيتُ طيلة الطريق. طلبتُ رؤية أولادي للمرّة الأخيرة ولكنهم لم يسمحوا لي بذلك بسبب وضع الجثث. وحتى الآن، وبعد شهرين على القصف، ما زلت أعيش في بيت أخي مع أولادي الثلاثة الذين تبقوا لي. ما زلت غير قادرة على التصديق أنّ هذا حصل معنا فعلاً، وأنا أشعر بأنني في كابوس وأحاول الاستيقاظ منه.

ابنتي آلاء (20 عامًا)، غير قادرة على تحريك يديها. ولا يمكنها أن تأكل بقواها الذاتية ويجب إطعامها. ابني كريم (10 أعوام) في وضعيّة نفسانيّة صعبة. وهو خائف طيلة الوقت، وخصوصًا في العتمة، وهو عصبيّ وغاضب.

يعيش حمزة الرملوي (54 عامًا)، أب لخمسة أولاد، مع عائلته في بيت مجاور. وقال لباحث بتسليم:²¹

صبيحة يوم الثلاثاء، 2014/7/29، عندما استيقظتُ كان الوضع هادئًا نسبيًا، ولم أسمع إلا أصوات قصف بعيدة. كان بعض أولادي ما زالوا نائمين وبعضهم قد استيقظ وقبل الساعة 8:00

²⁰ سجّل إفادتها محمد سعيد، يوم 2014/9/29.

²¹ سجّل إفادته محمد سعيد، يوم 2014/9/22.

بقليل سمعت صوت انفجار قويّ. شعرتُ بأنّ سقفا المصنوع من الإسبست قد تطاير في الهواء وحطّ ثانية. وقعت الحجارة على رؤوسنا. ظننتُ أنّ الانفجار وقع في بيتنا. وبعد عدّة لحظات سمعتُ صوت انفجار آخر، وانهار السقف. وقعت علينا قطع كبيرة من الركام والحجارة. سمعتُ زوجتي والأولاد يصرخون لكنني لم أكن أرى شيئاً. كان الغبار يسود المكان، ولم تبدأ سحب الدخان والغبار بالتبدّد إلا بعد نحو ثلاث دقائق. رأيت ابني محمد (25 عاماً) ملقياً على الأرض والم ينزف من رأسه. رأيت أيضاً ولديّ رامي (16 عاماً) وأحمد (22 عاماً) مغمورين بالدم والغبار. وكانت زوجتي بثينة وابنتي مها (18 عاماً) تصرخان. كانت جدران البيت الغربيّة قد تهدّمت. لم أعرف ما يجب فعله. بعد عدّة لحظات وصل الجيران لمساعدتنا، فأخرجونا إلى الشارع كي ينقلونا إلى المستشفى.

في الشارع رأيت الكثير من الناس يركضون صوب بيت جارنا إباد الدالي، وعندها أدركتُ أنّ القصف صوّب نحو بيتنا. بيتنا من ثلاثة طوابق وتعيش فيه عائلات بالإيجار، ومكث عندهم أيضاً أقرباء هربوا من البلدات الشرقيّة في خان يونس.

لقد تحوّل بيتنا إلى كومة من الركام. وفيما كنّا ننتظر سيّارة الإسعاف أدركتُ أنّني أصبتُ بالرأس ورأيت الدم على ملابسي. تجوّلت في المنطقة ورأيت ثلاث جثث لنساء في الشارع الموازي للبيت الذي قُصف. كانت إحدى الجثث مغطّاة بقطعة قماش. رأيتُ أيضاً الدمار الكبير الذي لحق بالبيوت الأخرى في الجوار، وكان الجيران يخرجون المصابين من بيت أخي.

9. قصف بيت عائلة بلاطة في مخيم جباليا للاجئين ومقتل 11 شخصاً من أفراد العائلة، 2014/7/29

أسماء القتلى:

ابنت عبد الكريم، صاحب البيت: هديل عبد الكريم نظمي بلاطة، 17 عام
كنته: وفاء نعيم عزمي بلاطة، 21 عام

ابنها عبد الكريم نظمي عبد الكريم بلاطة، عام واحد

أخيه الذي لجأ الى بيته مع عائلته: نعيم نظمي محمد بلاطة، 45 عام

زوجته: سحر مطاوع محمد بلاطة، 39 عام

أخته هند مرزوق نادي معمر، 30 عام

أولادهم: مريم نعيم نظمي بلاطة، 24 عام

دعاء نعيم نظمي بلاطة، 22 عام

هناء نعيم نظمي بلاطة، 19 عام

آلاء نعيم نظمي بلاطة، 14 عام

أسراء نعيم نظمي بلاطة، 13 عام

يحيى نعيم نظمي بلاطة، 8 اعوام

في يوم 2014/7/29، ونحو الساعة 15:00، قصف الجيش الإسرائيلي بيت عائلة بلاطة في قلب مخيم جبالي للاجئين، شماليّ القطاع، وقُتل 11 شخصاً من أفراد العائلة.

وكان يسكن في بيت العائلة المؤلف من ثلاث غرف، ثمانية أفراد: الوالدان، عبد الكريم وهدي، وأربعة أولاد، وزوجة وابن أحد الأبناء البالغ 13 شهرًا. وبما أن البيت كان مينيًا من الاسمنت ويُعتبر آمنًا نسبيًا، انتقلت إليه مع بدء القتال عائلة نعيم، أخ عبد الكريم، المؤلفة من تسعة أفراد.

في أثناء القصف شاهد عدد من سكان البيت التلفزيون في الصالون، وبعضهم كانوا نائمين والباقي كانوا يمكنون خارج البيت. وقال علاء بلاطة (18 عامًا)، ابن نعيم، واصفًا ما حدث:²²

في ظهيرة يوم الثلاثاء تناولنا وجبة الغداء وجلسنا لمشاهدة التلفزيون. بعدها احتسى والدي القهوة وخذل للنوم. بقينا نحن في الصالون وخذل عمي للنوم. أنا كنت أقف على الدرج وطلبت من أمي أن تحضر لي ملابس لأنني أردت الذهاب إلى بيتنا والاستحمام. دخلت أمي كي تحضر لي الملابس وعندها سمعت صوت انفجار قويًا على بعد عشرات الأمتار من البيت. صعدت إلى السقف مع ابن عمي نظمي وزوجة عمي. رأينا الدخان ونزلنا إلى الأسفل، وعندها سمعنا صوت انفجار في البيت وصوت ركام ودمار.

وقال نظمي بلاطة (24 عامًا)، ابن عبد الكريم، واصفًا ما حصل:²³

سمعنا صوت انفجار آخر وفي تلك اللحظة وقع الركام علينا. أخذ أبي محمد واحتضه بقوة ليحميه من الركام الذي تناثر. أنا كنت مع أمي بجانب البيت وعندها رأيت ابن عمي يحيى ابن الثامنة، وأمه، مستلقيين على الأرض عند مدخل البيت. أخذ أبي يحيى الذي كان ينزف من رأسه. كانت أمي تبكي. قال لي أبي إن الدخان يخرج من غرفتي. ذهبت إلى هناك من أجل تخليص ابني، عبد الكريم، ابن الـ 13 شهرًا. لم أرَ أي شيء بسبب الدخان والغبار لكنني سمعته يبيكي. ذهبت إلى غرفة أختي هديل التي خرج منها الدخان والغبار أيضًا، ووجدت عبد الكريم هناك. أخذته وخرجت عبر النافذة. قُطع جزء من أصابعه وكان مصابًا إصابة بالغة في رجله. لم أرَ سائر أفراد عائلتي في الغرفة.

نقل نظمي ابنه إلى المستشفى، وهناك أعلنت وفته بعد نحو ساعة. بعدها أعلموه بأن زوجته وأخته قُتلتا أيضًا، وكل عائلة عمه أيضًا، باستثناء علاء ابن الثامنة عشرة. في الغداة جرت جنازات القتلى. وهذا ما قاله نظمي:

أمسكت بجثة ابني ولم أوافق على إعطائها لأقربائي كي يدفونه. في النهاية ذهب الجميع إلى المقبرة وبقيت أنا مكاني، ولم أستطع مرافقتهم. كنت في حالة هلع. لم أتحرك ولم أستطع التوقف عن البكاء. بقيت في هذه الوضعية لعدة ساعات. بعدها ذهبت إلى بيت عمي جميل، حيث مكنت كل العائلة. جلست مع أمي وبكيت وقلت لها "عبد الكريم مات". لم أتوقف عن البكاء، وحاولت تهدئتي، لكنها لم تنجح. كنت أشعر بألم عميق.

وقال علاء بلاطة (18 عامًا)، الذي ثكل كل أفراد عائلته وهو يعيش اليوم في بيت عمه: ما زلت مصدومًا من أن عائلتي برمتها قد قُتل. أنا وحدي الآن، وأشعر بالحزن الشديد. لا يمكنني أن أصف ما أمر به، وأنا أشعر بقلّة التركيز والخوف والتوتر. لقد كان الفراق صعبًا للغاية.

10. قصف مدفعي يصيب بيتًا سكنيًا في جباليا ومقتل 18 شخصًا، 2014/7/29

أسماء القتلى:

²² سجّل إفادته محمد صباح، يوم 2014/8/17.

²³ سجّل إفادته محمد صباح، يوم 2014/8/16.

بركه إبراهيم حسن عبد ربه، 50 عام
 ابنائها: علاء جمال علي عبد ربه، 29 عام
 ابنته: رهن علاء جمال عبد ربه، 3 اعوام
 محمد جمال علي عبد ربه، 24 عام
 ابنه: جمال محمد جمال عبد ربه، عام واحد
 عبد الله جمال علي عبد ربه، 23 عام
 إبراهيم جمال علي عبد ربه، 20 عام
 حليلة محمود محمد البطش، 77 عام
 آية اسماعيل محمد البطش، 11 عام
 محمد خضر عطيه مسلم، 26 عام
 نهاد خليل سعيد سليمان، 38 عام
 ابنها: براء محمد حسني سليمان، 6 اعوام
 ابنتها: حليلة محمد حسني سليمان، عام واحد
 ماجدة جمال حسن حمودة، 50 عام
 كائنات عادل أحمد حمودة، 39 عام
 حنين حسام الدين خليل حمودة، 13 عام
 إبراهيم عدلي حسن عسلي، 20 عام
 عزت خميس يوسف جنيد، 17 عام

في يوم 2014/7/29، ونحو الساعة 22:15، أطلق الجيش الإسرائيلي نيرانًا مدفعية ثقيلة أصابت بيوت المدنيين الواقعة بجوار المسجد العمري، في مركز جباليا شمال القطاع. وقُتل في هذا القصف 18 شخصًا، بعضهم في داخل البيوت وبعضهم أثناء محاولتهم الهرب. وقد تواصل القصف عشر دقائق تقريبًا.

أُعتبرت هذه المنطقة هادئة نسبيًا أثناء القتال، وكان من بين القتلى أيضًا أشخاص لجؤوا إلى بيوت أقربائهم بعد أن فروا من بيوتهم الواقعة في المناطق التي أُعتبرت أكثر خطرًا في القطاع.

هذا ما قاله وصفي حمودة (47 عامًا) الذي فقد ستة من أفراد عائلته، لجأوا جميعهم إلى بيته:²⁴
 في أثناء فترة القتال كلها كانت منطقتنا هادئة نسبيًا. وطلب الجيش الإسرائيلي من السكان الذين يعيشون في المناطق الأخرى إخلاء بيوتهم والانتقال إلى جباليا. وكان بوسعنا حتى الذهاب إلى المسجد للصلاة والتسوق في الحي.

يوم الثلاثاء، 2014/7/29، ونحو الساعة 22:20، كنت في البيت عندما سمعت عدة تفجيرات متتالية. لقد هزت هذه التفجيرات المنطقة برمتها. وتواصل القصف لعدة دقائق وكان ثقيلًا. ومع مرور الوقت شعرت بأنه يقترب من بيتي أكثر. كل من كان في البيت جلس على الأرض وكانوا خائفين جدًا. وعندها رأيت ضوءًا قويًا عبر الشباك المٌطلّ على الشرق ومن بعده فورًا وقع انفجار هائل. شعرنا بأنّ الحجارة والشظايا تدخل إلى بيتنا وسمعت عدة شبابيك تتكسر. شعرنا بأنّ الوضع خطير وقرّرنا النزول إلى الطابق الأرضي، خصوصًا أنّنا رأينا أنّ القصف لا يتوقف. ومع كل دقيقة سمعنا نحو ستة انفجارات متتالية.

ركضنا جميعنا باتجاه الدرج المؤدي إلى الطابق الأرضي. ارتطمنا بعضنا البعض، وكنا مذعورين ومرتبكين وكان الأولاد يبكون ويصرخون. وصلنا إلى الطابق الأرضي وجلسنا هناك نحو عشر دقائق استمرّ القصف الثقيل خلالها. بعدها سمعنا صوت انفجار هائل ووقعت علينا الحجارة،

²⁴ سجّل إفادته محمد سعيد، يوم 2014/11/4.

وأصاب بعضها الناس. وقد تهتم جزء من الحائط الغربي في الطابق الأرضي جراء القصف. صار المكوث في البيت أكثر خطورة ثم سمعنا الجيران يركضون في الشارع ويهربون. في هذه المرحلة قررنا تقليدهم وترك البيت خشية أن ينهار فوق رؤوسنا.

فتح أخي عبد الحكيم الباب وخرج إلى الشارع ومن ورائه خرج خمسة من أفراد عائلتي. أنا وقفت إلى جانب الباب وهممت بالخروج، ولكن في لحظة خروجهم سمعت أربعة انفجارات قوية في الشارع، كلها في المنطقة المحيطة بالبيت. وبعد هذه التفجيرات تطايرت الحجارة والشظايا صوب كل من كان في الداخل. بعدها وقع انفجار آخر قريب جدًا وأنا طرث ووقعت على الأرض.

أما نصره عسليّة (36 عامًا)، التي فرّ إلى بيتها هي أيضًا أقرباء من مناطق أخرى في القطاع، فقد وصفت ما حدث في القصف الذي قتل ثمانية أشخاص منهم، سبعة منهم من أبناء عائلة عبد ربّه.²⁵

قراءة الساعة 22:15 كنت أحضر طعام العشاء ووضعت على المائدة. توجهت إلى المطبخ كي أحضر باقي الصحون، وفجأة بدأت الحجارة تتطاير من حولي. سمعت ضجة الجدران من حولي وهي تنهار وزجاج الشباك وهي تتكسر. امتلأ المطبخ برّمته بالغبار وشعرت بأن شيئًا حارًا يلمس رجلي. نظرت حولي ورأيت أولادي وأقربائي يركضون باتجاه درج البيت، المؤدي إلى الأسفل. كانوا في حالة هستيرية وارتطموا الواحد بالآخر. لم أدرك أنني أصبتُ وحاولت المشي والهرب برفقتهم، لكنني شعرت لحظتها بالألم في رجلي. عندما نظرتُ إلى الأسفل رأيت الدم من حولي. حاولت التقدّم خطوات أخرى وسمعت خلال ذلك المزيد من التفجيرات وأصوات الأغراض المتكسرة داخل البيت. تطايرت الحجارة والحصى بكلّ الاتجاهات وامتلأ البيت بالغبار.

وصل زوجي إليّ وساعدني على نزول الدرج. كان مرتعبًا ومرتبكًا. شعرنا بأنّ الحجارة والأغراض الساخنة تسقط علينا. كان المكان معتمًا جدًا وأنا تعثرت ووقعت عدّة مرات قبل وصولنا إلى الباب المؤدي إلى الساحة. اختبأ أولادي وأقربائي هناك تحت بيت الدرج. وقفت هناك، بجانب الباب، لعدة لحظات. سمعتُ عدّة انفجارات في الدقيقة، بعضها كان قريبًا منّا جدًا. صرخ الأولاد وبكوا. اردنا الخروج من البيت لكننا خفنا من إطلاق النار علينا في الخارج. اراد زوجي للخروج إلى الشارع لكنني طلبتُ منه الانتظار حتى يتوقف القصف.

بعد عدّة دقائق تواصل فيها القصف بلا توقّف، قرّر بعض الناس الخروج: خالتي بركة عبد ربّه وأولادها علاء ومحمد وإبراهيم. حمل علاء على يديه ابنته رهنف وأمسك محمد بابنه جمال. اردوا الخروج من الشارع ولكن عندما كانوا ما يزالون في ساحة البيت، على بعد عدة أمتار عتًا، وقع انفجار كبير في الساحة وقتلوا جميعاً. رأيت ضوءًا ساطعًا أضاء كلّ المنطقة لوهلة، وشعرتُ بهواء حارّ يدفعني بقوة. تطايرت من حولنا الأشجار والرمال. وبعد عدّة لحظات وجدتُ نفسي مستلقية على الأرض. كنت أعاني من أوجاع شديدة. لم أسمع ولم أر أولادي أو أقربائي يتحرّكون من حولي.

بدأت بالصراخ على زوجي وأولادي لكنّ أحدًا منهم لم يُجب في اللحظات الأولى. بعدها سمعتُ ابنة خالتي، آلاء جمال عبد ربّه. كانت تبكي بحرقة وقالت لي: "خالتي، كلّهم ماتوا". امتلأ المكان كلّهُ برائحة الدم. تلمستُ الأرض حولي وكانت كلها مليئة بالدم. وبعد عدة لحظات لمست جسم أحدهم، كان ملقى بجانب. شعرت بجسده يتحرّك، كان يتنفس ولكنه لم يردّ عليّ ولم أعرف من هو. في هذه المرحلة رنّ هاتف زوجي الذي كان ملقى على الأرض بجانب. أخذته ورددتُ من

²⁵ سجّل إفادتها محمد سعيد، يوم 2014/11/4.

دون أن أعرف هوية المتصل. قلتُ له إنَّ الأشخاص من حولي قُتلوا وتوسَّلتُ أن يرسل لنا المساعدة.

بعد نحو الساعة وصلت إلى المكان سيَّارة إسعاف ونقلت المصابين إلى المستشفى. هذا ما قالته نصرّة عسليّة حول ما حدث فيما بعد:

طيلة هذه الفترة، وحتى وصول سيَّارة الإسعاف، ظننتُ أنَّ أولادي قُتلوا لأنني لم أسمع أصواتهم ولم أرَ أحدًا منهم باستثناء أحمد. لم أعرف أيضًا مكان وجود زوجي. بعد نحو الساعة، وصلت سيَّارة الإسعاف وأخذتني إلى مستشفى العودة. كنت أقول طيلة الطريق: "أتمنى لو أنني قُتلت معهم". حاول المضمّدون تهدّئتي، ومن شدّة قلقي على مصير أولادي لم أكن أشعر بالألم، بل كنت أفكر فقط بما سأفعله إذا مات زوجي وأولادي، أيّ حياة ستكون حياتي؟ عندما وصلت المستشفى حاول الأطباء إقناعي بأنَّ أولادي بخير لكنني لم أصدّقهم ولم أوافق على تلقّي ولو حتى الإسعاف الأولي. رفضت أن يلمسني أحدهم حتى أرى عائلتي. ومرّ وقت والأطباء يحاولون تهدّئتي.

بعدها وصل ابني أحمد وقال لي إنهم أخذوا زوجي إلى المستشفى وإنه يعاني عدّة إصابات. هدّأني وقال إنَّ سائر أولادي بخير وإنهم أصيبوا فقط. نقلوني إلى الغرفة التي كانوا يمكثون فيها وهناك رأيت جميع أولادي المصابين، باستثناء محمود ابن الخامسة عشرة. خشيت أنه قُتل في القصف أو أنَّ طاقم سيَّارة الإسعاف لم يرّه عند نقلهم، لكن بعد ساعة من البحث في أقسام المستشفى المختلفة علمنا أنَّ محمود نُقل إلى مستشفى كمال عدوان وأنه بخير.

11. قصف بيت عائلة البيومي في مخيم النصيرات للاجئين ومقتل 13 شخصًا،

2014/7/31

أسماء القتلى:

بنات عامر وانتصار البيومي:

عبير عامر الحميد البيومي، 18 عام

اسيل عامر الحميد البيومي، 15 عام

هديل عامر الحميد البيومي، 13 عام

ابن اخ عبير عامر البيومي: الحسن محمد عبد الحميد البيومي، 13 عام

اقرباء انتصار البيومي اللذين وصلوا من مخيم اللاجئين اليريج:

امها زينب يوسف زقوت، 77 عام

ابن اخيها حسن ناصر حسين زقوت، 21 عام

زوجة ابن اختها نعمة درويش حسين ابو شوكة، 44 عام

بناتها: لبيبة ابراهيم شاكر ابو شوكة، 44 عام

ابنتها: ملك شاكر محمد ابو شوكة، عام واحد

الهام ابراهيم شاكر ابو شوكة، 18 عام

قتل في البيت المجاور:

عبير ناهد محمد الاعسر، 23 عام

ابنتها رناد اشرف محمد الاعسر، عامان

في يوم 2014/7/31 ونحو الساعة 20:30، قصف الجيش بيت عائلة البيومي في مخيم النصيرات لللاجئين في مركز القطاع. وسقطت أجزاء من ركام البيت على بيت الجيران، وهم عائلة الأعسر. قُتل في القصف 13 شخصًا.

يقع بيت عائلة البيومي في قلب مخيم النصيرات لللاجئين. ويعيش في الطابق الثاني عامر وانتصار البيومي مع أولادهما السبعة. ونتيجة للقتال والتفجيرات في أرجاء القطاع، وصل إلى بيتهم أيضًا أقرباء عائلة انتصار، وهم من سكان مخيم البريج لللاجئين: والدّة انتصار، زينب زقوت، وعائلة أخيها ناصر زقوت التي يبلغ تعداد أفرادها ثمانية أنفار وعائلة ابن أختها، إبراهيم أبو شوكة، التي يبلغ تعدادها 11 نفرًا. ويعيش في شقق البيت الأخرى أفراد عائلة البيومي الموسّعة: في الطابق الأول كان يسكن والدا عامر وأحد أخوته مع أفراد عائلته. وفي الطابق الثالث كان يسكن أخوان آخران مع عائلتهما، ليبلغ مجموع سكان البيت 43 شخصًا.

وقال إبراهيم أبو شوكة (52 عامًا)، ابن أخت انتصار، لباحث بتسليم، كيف أنّه وجد نفسه هو وزوجته وأولاده السبعة وحفيدها الاثنان، في بيت عائلة البيومي:²⁶

بعد نحو أسبوع على بداية القتال، اضطررت لترك بيتي أنا والعائلة. في البداية ذهبنا إلى بيت أخ زوجتي في قرية الزوايدة. ومكثنا هناك لساعتين حتى وقوع القصف. خفنا وتركنا البيت. ذهبنا من هناك إلى مخازن شركة المجد لإنتاج الكرتون، مقابل مخيم البريج لللاجئين. وكان معنا أخي محمد (62 عامًا) وزوجته وأولاده السبعة. كان فيه فراش للنوم ومياه وغاز وكهرباء. كان الوضع جيدًا.

بعد أكثر أسبوع ازداد القصف وأصيب المخزن بشظايا، فقرّرنا المغادرة ثانية. ذهبنا إلى بيت عامر البيومي، زوج خالتي، في مخيم النصيرات لللاجئين. عندما رأى أخي أنّ البيت لا يتسع للجميع، أخذ زوجته وذهب للسكن لدى أقاربنا في الزهراء، شمال مخيم النصيرات لللاجئين. وظللت أنا مع عائلتي في بيت عائلة البيومي.

بعد أسبوع، جرى فيه قصف مناطق مختلفة في المخيم من الجو، اتصل بي خالي عبد الرحمن زقوت وقال لي إنه يعيش في مدرسة للأونروا في مخيم النصيرات. واقترح أن آتي إلى هناك برفقة عائلتي. تركنا بيت عائلة البيومي وذهبنا إلى المدرسة. عندما وصلنا رأينا أنّ الوضع صعب جدًّا، وكان هناك الكثير من الناس الذين فروا من بيوتهم ولم يكن في المكان لا ماء ولا طعام. نمنا هناك ليلة واحدة، وبعدها عدنا إلى بيت عامر البيومي. وأقمنا أن وزوجتي والأولاد في غرفة واحدة.

في ساعات المغرب من يوم 2014/7/31 قصف الجيش بيت عائلة البيومي وتهدّم فوق رؤوس ساكنيه. كانت شقتان في تلك الأثناء خاليتين، إذ أنّ إحدى العائلات مكثت خارج القطاع وكانت عائلة أخرى في زيارة للأقرباء. أمّا سائر الشقق في البيت فكانت مأهولة.

قُتل في القصف 13 شخصًا: عشرة منهم في داخل البيت، ومن بينهم تسعة أشخاص في الطابق الثاني: ثلاث من بنات عامر البيومي وستة من أفراد العائلة التي طلبت الملجأ في بيته. وقُتل أيضًا أخ عامر، الذي كان يمكث ساعتئذ في الطابق الثالث.

ثكل إبراهيم أبو شوكة في القصف زوجته واثنين من بناته وحفيده. وقال واصفًا ما حدث:

²⁶ سجّل إفادته خالد العزايزة، يوم 2014/8/28.

يوم الخميس، 2014/7/31، ونحو الساعة 20:30، كنتُ في بيت أقرباء لي، وهم عائلة حمادة أبو شوكة، على بُعد نحو ثلاثين مترًا من بيت عمي. كما أنا وابن عمي نجلس هناك ونقضي الوقت سوية. فجأة سمعنا صوت انفجار مُدَوٍّ وشعرت فور ذلك بأنني أطير في الهواء أنا والفرشة. لم أستطع سماع شيء فور وقوع الانفجار.

خرجت بسرعة إلى الشارع وأدركت أنهم فجّروا بيت البيومي. كان التيار الكهربائي مقطوعًا وامتلاً الشارع بالغبار. ركضتُ نحو البيت وأردت دخوله لكنّ الناس منعوني خوفًا من قصفه ثانية. لم أستطع البقاء في الخارج فيما كانت عائلتي داخل البيت. شغلت المصباح في هاتفي المحمول وأمسكته بعمي وبدأت أتلّمس طريقي بيديّ بين الركّام. عندما صعدتُ إلى الطابق الثاني، الذي تقع فيه شقة عامر، وجدتُ زوجتي تحت الركّام. ناديتها ولكنها لم تجبني. أصيبت برأسها وأدركت أنها قُتلت. حملتها إلى الشارع. وفي الطريق وقعت عدّة مرّات على الركّام لأنني كنتُ وحدي. كان الناس يخافون دخول البيت.

بعد ذلك، وصل جيران إلى البيت وساعدوا في إخلاء المصابين وجثث القتلى. واستمرّ تخليصهم حتى ساعات الفجر الأولى. وقال إبراهيم أبو شوكة:

واصلت البحث حتى طلوع الفجر. جاء الناس وحاولوا تهدّئتي. قالوا لي إنّه لم يبقَ أيّ شخص تحت الركّام ولكنني لم أصدّقهم حتى قالوا لي أسماء أولادي وقالوا إنهم موجودون في مستشفى شهداء الأقصى في دير البلج. وقالوا لي أيضًا إنّ عددًا من المصابين نُقلوا إلى مستشفى الشفاء.

شعرت بالتعب الشديد. تركت الناس وابتعدتُ عدّة أمتار. جلست بجانب أحد البيوت وطلبت شرب الماء، فاحضروه له. بعد عشر دقائق على ذلك جاء شخص وسألني عن ابنتي إسلام. قال لي إنه ذاهب لإحضارها. ثم أحضرها وكانت بحالة جيّدة. عرفتُ أنّ إسلام طارت بسبب قوّة القصف نحو 12 مترًا ووقعت في بيت الجيران، ولكنها لم تُصَب.

كنتُ مرتبّكًا جدًّا ولم أعرف هل عليّ الذهاب إلى مستشفى الشفاء أم إلى مستشفى شهداء الأقصى. أبقيتُ إسلام لدى أقربائي وذهبت سيرًا على الأقدام وحافيًا. كانت الساعة مكرّة جدًّا ولم تكن سيارات في الشارع. واصلت السير حتى وصلت مدخل الزوايدة، على بعد عدّة كيلومترات. بعدها جاء ابن عمي، أحمد أبو شوكة، بسيارة إسعاف. أخذني إلى مستشفى شهداء الأقصى وهناك تعرّفت بالقتلى.

طال القصف أيضًا بيت الجيران، إذ قُتل فيه ثلاثة أشخاص آخرين: عبيد الأعسر، التي كانت حامل بشهرها التاسع، وابنتها رناد التي تبلغ من العمر عامين ونصف العام، وابنة نسيبها، لمى الأعسر، ابنة الأعوام الستة. وقال أشرف الأعسر (36 عامًا)، زوج عبيد، واصفًا ما مرّ عليه تلك الليلة:²⁷

يوم الخميس، 2014/7/31، ونحو الساعة 10:15، كنّا أنا وأفراد عائلتي في شقتنا، في الغرفة ذاتها. أدّيت صلاة العشاء واستلقى الأولاد على فراشهم. فجأة وقع انفجار قويّ جدًّا وانهارت الجدران علينا. صرخت زوجتي ونادت عليّ، وصرخ الأولاد ونادوا عليّ وعلى والديهم. حاولت القيام لإنقاذهم لكنني لم أستطع لأنني كنتُ تحت الركّام. حاولتُ أكثر من مرة، فلحق الأذى بيديّ وكنتُ في.

²⁷ سجّل إفادته خالد العرايزة، يوم 2014/8/27.

بدأت بالصراخ والمناداة على أختوتي وأبي. عمّ الظلام والغبار البيت وكان الركّام مكوّماً فوقنا. اعتقد أننا ظللنا هكذا بين عشر دقائق إلى ربع ساعة. وفي هذه الأثناء، واصلت بناتي الصراخ ولكن زوجتي عيبر، التي كانت في الشهر التاسع من حملها، سكّنت.

بعد عدّة دقائق سمعت صوت أشخاص أتوا لمساعدتنا. عندما سمعت صوت خطواتهم فوق الركّام بدأت بالصراخ بصوت عالٍ لكنّ أحداً لم يسمعي. لم يدخل الهواء إلا من شقّ صغير مقابل أنفي. لكن يبدو أنهم سمعوا صرخات بناتي. سمعت ابنتي نغم تقول لهم "أبي موجود هنا". سمعتُ شخصاً ما يقترب مني. بدأ برفع الركّام وعندها نحتت بمساعدتهم على إخراج يدي. أشرت إلى المكان الذي كانت فيه زوجتي وابني وابنتي رناد، وطلبت منهم تخليص زوجتي والولدين قبلي. أخرجوا عبد الله من تحت الركّام. سمعته يصرخ فهدئت قليلاً لأنني أدركت أنه على قيد الحياة. بعدها بحثوا عن زوجتي بواسطة المصابيح. كانت قريبة مني وعندما رأيت وجهها تحت الركّام أدركت أنها ماتت لأنها لم تفتح عينيها ولم تتنفس. في ذلك الوقت حاولوا إخراج رناد أيضاً وعندما رأيتها أدركت أنها ميتة هي الأخرى.

كانت زوجتي على وشك الولادة. قبل يومين من مقتلها طلبت منها البقاء في المستشفى حتى تلد لكنها أصرت على البقاء في البيت إلى جانب الأولاد بسبب القتال. كانت قلقة عليهم. إنّ جنس الجنين كانت أنثى. تحدّثنا أحياناً عن الاسم الذي سنمنحه للمولود وقلت لها إذا كان ولداً فإنني سأسميه أحمد. لم نقرّر أيّ اسم سنمنحه للمولود لو كان بنتاً.

12. قصف بيت عائلة أبو ماضي في مخيم النصيرات للاجئين ومقتل ستة من

أفراد العائلة، 2014/8/2

أسماء القتلى:	
يوسف داوود عبد المنعم ابو ماضي، 68 عام	
اولاده: عبد الكريم يوسف داوود ابو ماضي، 23 عام	
حسن يوسف داوود ابو ماضي، 17 عام	
امين يوسف داوود ابو ماضي، 10 اعوام	
احفاده: يوسف شادي يوسف ابو ماضي، 6 اعوام	
حلا شادي يوسف ابو ماضي، اسبوعين	

في ظهيرة يوم 2014/8/2، قصف الجيش الإسرائيلي بيت عائلة أبو ماضي في مخيم النصيرات للاجئين في وسط القطاع. وانهار البيت على ساكنيه وقُتل ستة من أفراد العائلة.

سكن أفراد عائلة أبو ماضي الموسّعة في بيت يتألف من ثلاثة طوابق: في الشقة بالطابق الثاني سكن الوالدان يوسف ورئيسة أبو ماضي مع أولادهم الأربعة الذين تراوحت أعمارهم بين 10-23 عامًا. وفي باقي الشقق سكن أولادهم الأربعة المتزوجون مع عائلاتهم. وفي المجمل بلغ عدد سكّان البيت 21 نفرًا.

شادي أبو ماضي (32 عامًا) الذي يسكن الطابق الثالث، وصل في ذلك اليوم إلى البيت قرابة الساعة 14:00. هذا ما قاله في إفادته لبتسيلم عمّا حدث بعد ذلك:²⁸

²⁸ سجّل إفادته خالد العزايزة، يوم 2014/9/8.

أخذت غلاية قهوة ونزلت للحديث مع والدتي تحت العريشة الموجودة في الطابق الأول. كان برافتي أخوأي عبد الله وسليمان وابني يوسف. وفجأة، ومن دون أي إنذار مسبق، انهار البيت علينا برُمته. ما حمانا أنا ووالدتي أننا جلسنا بجانب بيت الدرج عند طرف البيت.

انهار البيت خلال لحظات معدودة ولم أرَ بعد ذلك شيئاً. ملاً الغبار والدخان الأسود المكان. بدأت بتلمس طريقي في الظلام والبحث عن والدتي وابني وأخوتي لكنني لم أرتطم إلا بالركام. رأيت ضوءاً خفيفاً وبدأت بالتوجه إليه. خرجت من تحت البيت إلى الساحة وعندها رأيت أن الجزء الجنوبي من البيت انهار تماماً، فيما ظلّ الجزء الشمالي منه واقفاً بشكل جزئي.

عندما خرجت وجدت أمي وأخوي عبد الله وسليمان ملقيين على الأرض. كانت أمي مصابة برجليها وأصيب أخوأي أيضاً بقطع الباطون التي وقعت. سألتني أمي عن يوسف وقلت لها إنني لا أعرف.

وصل إلى الموقع جيران وأعضاء الدفاع المدني ومضمدون وبدؤوا بالتفتيش عن سكان البيت. أبعدوا شادي عن الموقع كي لا يرى عملية انتشار الجثث ونقلوه إلى المستشفى. بعد نحو ساعتين عاد شادي أبو ماضي إلى بيته المهتم كي يساعد في البحث عن ولديه، يوسف ابن السبعة أعوام وحلا ابنة العامين، لكنّ القصف تجدد، فتوقفت عمليات البحث بسبب خطورة ذلك. مع انتهاء القصف اتضح أن يوسف وحلا قُتلا في قصف البيت، وقُتل معهما والد شادي وثلاثة من أخوته.

أصيب أفراد آخرون من العائلة في القصف بدرجات متفاوتة ومختلفة. ميسرة، زوجة الأخ إبراهيم، والتي كانت حبلً بشهرها السابع، أجهضت جنينها نتيجة للقصف. وواصل شادي وصفه:

لم نستطع أنا وزوجتي استعادة هويتنا لأننا لم نعثر على جثتي ولدينا، يوسف وحلا. ومنذ الحادثة تبكي زوجتي طيلة الوقت ووضعنا النفساني سيئ للغاية. بعد عشرة أيام تقريباً انتهزت أيام الهدنة، فذهبت إلى بلدية النصيرات وطلبت منهم جلب رافعة من أجل البحث عن ولدي ثانية. قالوا لي إن لديهم رافعة واحدة فقط موجودة الآن جنوب القطاع، لكنّ رئيس البلدية وعدني بإرسال الرافعة لحظة وجودها. وبالأمس، يوم الأحد 2014/9/7، وصلت الرافعة وبحثنا ثانية لنحو أربع ساعات، ولكننا لم نعثر عليهما.

الآن نعيش أنا وزوجتي وولدانا الاثنان في شقة مستأجرة. وقد استأجر أخوتي الثلاثة -عبد الله وسليمان وإبراهيم- شققاً مثلنا. أمي موجودة اليوم لدى أخي إبراهيم وهي تعتني بولديه لأنّ والدتهما التي أصيبت نقلت للعلاج في ألمانيا {...}

أولادي الاثنان، محمود ابن الأعوام الأربعة ومحمد ابن الأعوام الثلاثة، يسألاني كلّ يوم عن أخيه يوسف وأختهم حلا. أنا أحكي لمحمود أنهما ذهبا إلى الجنة. وهو يسألني متى سنصل إليهما ومتى سيأتي يوسف وحلا لزيارتنا. حلا كانت ابنتنا الوحيدة. ومنذ القصف تغير طبع زوجتي وتحولت إلى انطوائية على ذاتها. هي تبكي أحياناً وتثار أعصابها أحياناً أخرى. لم تعد تاكل كما في السابق وهي تهذي أحياناً ويبدو لها أن حلا جائعة وتطلب منها أن ترضع.

13. قصف بيت عائلة أبو نجم في مخيم جباليا للاجئين ومقتل عشرة أشخاص، من بينهم ناشطان في الجهاد الإسلامي، 2014/8/3

أسماء القتلى:

بيت أبو نجم:

محمد عبد الكريم محمد أبو نجم، 54 عام

أولاده: بلال محمد عبد الكريم أبو نجم، 26 عام

محمد محمد عبد الكريم أبو نجم، 20 عام

أحمد محمد عبد الكريم أبو نجم، 17 عام

أبوه: عبد الكريم محمد عوض أبو نجم، 92 عام

بيت المصري:

سهى حامد عبد الكريم نجم المصري، 29 عام

ابنتها: رغد محمد سعدي نجم المصري، 3 اعوام

شيماء وائل محمود قاسم، 14 عام (لجأت عائلتها الى البيت)

دانيال كامل محمد منصور، 41 عام

عبد الناصر عبد الخالق إبراهيم العجوري، 26 عام

في يوم 2014/8/3، ونحو الساعة 21:00، قُصف بيت عائلة أبو نجم في مخيم جباليا للاجئين شمال القطاع. وهُدم في القصف بيت العائلة وبيت للجيران وقُتل ناشطان تابعان لحركة الجهاد الإسلامي كانا في البيت، مع ثمانية أشخاص آخرين: خمسة أفراد من عائلة أبو نجم وامرأة وفتاتان في البيت المجاور.

كان الزوجان محمد وفوزية أبو نجم يعيشان في الطابق الأرضي مع ولديهما، محمد (20 عامًا) وأحمد (17 عامًا). وكان يسكن في الطابق الأول ابنهم بلال وزوجته مريم وولداهما، وفي الطابق الثاني والد محمد، عبد الكريم، وعمره 92 عامًا.

في مساء يوم 2014/8/3، حلّ دانيال كامل منصور، الناشط في الجهاد الإسلامي، ضيفًا على عبد الكريم في الطابق الثاني. وقرابة الساعة 21:00 وصل إلى البيت شخص آخر، هو عبد الناصر العجوري. وبعد فترة قصيرة على ذلك قصف الجيش الإسرائيلي البيت. وبعد القصف أعلن جهاز الأمن العام (الشّباك) أنّ الجيش الإسرائيلي قصف مبنى كان يمكث فيه منصور، "قائد فرقة في الجهاد الإسلامي، وقد قُتل. وأضاف جهاز الأمن العام (الشّباك) أنّ منصور "ترأس ملف الاستخبارات التابع للحركة في قطاع غزة، ونشط في عملية "الجرف الصامد" في توجيه تصويب إطلاق القذائف صوب إسرائيل".²⁹

وقالت مريم أبو نجم (23 عامًا)، والتي سكنت الطابق الأول، لبتسيلم ما حدث في ذلك المساء:³⁰

في ذلك اليوم كنّا صائمين. وقرابة الساعة 19:30 أطلق الجيش الإسرائيلي قذائف إنارة وأضاء المنطقة كلّها. تناولنا وجبة الإفطار وغسلنا الأطباق. بعد الصلاة جلسنا قليلًا وعندها أخذت أطفالي إلى غرفتي. كان زوجي يجلس مع والدته وأخيه أحمد. أخذ حماي كوب شاي لوالده، الحاج عبد الكريم، الذي كان في بيته بالطابق الثاني. قمت أنا بمدّ فراش أولادي واستلقوا بجانبني للنوم.

في ذلك الوقت كان التيار الكهربائي مقطوعًا. فجأة سمعتُ ورأيتُ ركام البيت وهو يسقط علينا. صرخت على زوجي. أصأت المصباح وسمعت ابنتي روعة (عام واحد) تصرخ. بحثتُ عنها

²⁹ "قبل سريان وقف إطلاق النار بلحظة: رشقة من 20 صاروخًا صوب إسرائيل"، هآرتس، 2014/8/4.

³⁰ سجّل إفادتها محمد صباح، يوم 2014/12/17.

ووجدتها تحت الأغطية. أخذت روعة وابني محمد (3 أعوام) وخرجت من الغرفة بسرعة. رأيت أحمد، أخ زوجي، مستلقياً بجانب باب الغرفة وقد فارق الحياة. رأيت الركاب والحجارة. لقد هُدم البيت تمامًا. سمعتُ صوت أهات وبحث بالمصباح لكنني لم أر سوى الردم، ولم أتبين مصدر الصوت.

أمسكت بالمصباح ومشيت على الركاب للخروج من البيت، وأنا أمسك الولدين بيدي. خرجتُ عبر البيت المجاور التابع لمحمد سعدي أبو نجم، والذي دُمر هو الآخر. جاء الجيران وأخذوني إلى أحد البيوت ومكثتُ عندهم.

لم يُطلعوا مريم على أنّ زوجها وأخواه وأباه وجدّه قد قُتلوا، إلا لاحقاً:

رغبتُ برؤية زوجي وأخيه للمرة الأخيرة، ولكنني لم استطع لأنّ جثثهم كانت مشوّهة، وقد أصيبوا برؤوسهم. لم أرَ إلا نسيبي. وفي صباح الغداة دُفّنوا. كنتُ في وضع عسير، ولم أصدق أنهم قُتلوا. لقد تهّم البيت فوق رؤوسنا، من دون أيّ إنذار. لقد سمعت ببساطة، وفجأة، ركاب البيت وهو ينزل علينا.

أصيب في قصف البيت، أيضاً، بيت الجارين محمد وسهى المصري، الذي لجأ إليه أفراد عائلة محمد، وائل ومي قاسم مع أولادهما الخمسة. سكنت عائلة قاسم بالقرب من المسجد في مخيم جباليا لللاجئين. بعد أن أعلن الجيش الإسرائيلي عن نيّته قصف المسجد المجاور لبيوتهم. وقد قُتل بالقصف سهى المصري وابنتها رغد ابنة الأعوام الثلاثة، وشيماء، ابنة وائل ومي قاسم التي بلغت 14 عاماً. وقال محمد المصري (38 عاماً) واصفاً هدم بيته:³¹

جلسنا وائل وأنا في غرفة الضيوف واستمعنا للأخبار بالراديو، إذ أنّ التيار الكهربائي كان مقطوعاً. فجأة سمعنا ورأينا الركاب يقع علينا وسادت العتمة وامتلاً الجو بالغبار. لم نكن قادرين على رؤية الواحد للآخر.

قمتُ فوراً وخرجتُ من الغرفة. سرتُ بين الركاب والغبار باتجاه باب البيت، من دون أن أرى شيئاً. شعرتُ بألم برجلي اليسرى. سمعتُ عدّة أشخاص يصلون إلى البيت وأدركتُ أنهم يُخرجون من كان بداخله. اعتقدتُ أنّ القصف كان على بيتنا بسبب الركاب وقوة الانفجار. أخذوني إلى مستشفى كمال عدوان. وفي صبيحة الغد أجروا لي عملية جراحية في رجلي اليسرى.

لم يُطلعني أصدقائي وأفراد عائلتي على موت زوجتي وابنتي رغد جراء قصف بيت محمد عبد الكريم أبو نجم، إلاّ بعد يومين على القصف، بيوم 2014/8/5. شعرتُ بألم كبير على موتهما وبكيتهما. أغمي عليّ وصحوتُ بعد عدّة ساعات وأنا غير مصدّق ما جرى لزوجتي وابنتي.

قصف البيوت- كيف وقع مثل هذا العدد الكبير من القتلى المدنيين؟

يتمثّل أحد الواجبات الأساسية السارية على جميع الأطراف المتنازعة الواجب بالتمييز بين من يشارك في القتال وبين السكّان المدنيين، قدر المستطاع. ويعني هذا الواجب حظر توجيه الهجمات والاعتداءات، بأيّ حال

³¹ سجّل إفادته محمد صباح، يوم 2014/12/23.

من الأحوال، صوب أهداف مدنيّة، وأنّ على الأطراف المتنازعة اتخاذ جميع وسائل الحظر المطرحة امامها من أجل تقليص المسّ بالسكان المدنيّين قدر المستطاع، تبعاً للظروف والملابسات.³²

لقد نشطت "حماس" من خلال التناقص التام مع هذه القواعد، وصوّب نشاطها غالبية هجماتهم على مراكز سكنيّة مدنيّة داخل إسرائيل. وفي المقابل، عادت جهات رسميّة في إسرائيل وكرّرت ادعاءاتها -أثناء القتال وبعدها- بأنّ الجيش الإسرائيلي ينشط وفقاً لأحكام وتعليمات القانون الإنسانيّ الدوليّ. فكتب المستشار القضائيّ للحكومة أثناء القتال، ردّاً على توجّه جمعيّة حقوق المواطن، أنّ "قوّات الجيش الإسرائيليّ تلقت توجيهات بالعمل وفقاً لأحكام القانون الدوليّ، ومن ضمن ذلك العمل وفقاً لمبادئ وأحكام قوانين القتال".³³ وبعد أربعة شهور على انتهاء القتال، ادّعى المدّعي العسكريّ العام أنّ "قوانين القتال تشكّل خطأ موجّهاً للجيش الإسرائيليّ وهو يعمل على تطبيقها بحزم".³⁴

إنّ فحص عشرات الحالات التي هاجم فيها الجيش الإسرائيليّ بيوتاً انهارت فوق رؤوس ساكنيها، وهي الهجمات التي أدّت لمقتل مئات الفلسطينيين، يشير إلى أنّ الجيش عمل في بعض الحالات على الأقلّ خلافاً لتعليمات القانون الإنسانيّ الدوليّ، فيما يُشبهه جدّاً بفعله ذلك في حالات أخرى. ولا تتطرق هذه المقولة إلى اعتداء هنا أو هناك فحسب، بل وبالأساس إلى سياسة الهجوم التي وضعها المستوى القياديّ الرفيع في الجيش والمستوى السياسيّ، كما يُستدلّ عليها من تحليل الحالات.

وقد وقع هذا المسّ الهائل بالمدينيّين نتيجة لثلاثة عوامل أساسية:

أ. تعريف فضفاض لـ "هدف عسكريّ" يُسمح المسّ به

يُعرّف "الهدف العسكريّ" الذي يُسمح للأطراف المتقاتلة بالهجوم عليه وحده، على أنّه هدف يُسهم "إسهاماً فعّالاً في النشاط العسكريّ"، وفي حال إصابته وفق الظروف القائمة في تلك الفترة، فإنّ هذه الإصابة توفر أفضليّة عسكريّة جليّة للجهة المعتدية.³⁵

ومن الأمور التي تقع ضمن هذا التعريف مخازن الأسلحة والقواعد العسكريّة أو المركبات العسكريّة، ولذلك فهي أهداف شرعيّة يُسمح بمهاجمتها. أمّا الأمور التي تُستخدم في العادة من أجل غايات مدنيّة، والتي تُستخدم أثناء القتال من أجل غايات عسكريّة، تتحوّل هي الأخرى إلى أهداف عسكريّة شريطة أن تلبّي متطلبات التعريف المذكور. وفي حال وجود شكّ بخصوص طابع الاستخدام الذي يتمّ عبر هذه الأمور والأشياء، يجب التعامل معها باعتبارها لا تُستخدم لغايات عسكريّة.³⁶

في أثناء القتال الذي اندلع في الصيف، امتنعت جهات رسميّة اسرائيلية، سواءً المستوى السياسيّ أم المستوى العسكريّ الإسرائيليّ الرفيع، عن توضيح الغايات العينيّة من وراء غالبية الاعتداءات. وبدلاً من ذلك، اكتفى الناطق العسكريّ بتوفير معطيات عامّة حول عدد الهجمات التي جرت في اليوم المذكور، والتي وُجّهت صوب

³² المحضر الأول الملحق باتفاقية جنيف عام 1977، المواد 48-58.

³³ رسالة من يهودا فاينشتاين، المستشار القضائيّ للحكومة الاسرائيلية، إلى المحامية تمار فلدمن من جمعية حقوق المواطن، يوم 2014/8/5.

³⁴ خطاب ألقاه العميد داني عفروني، المدعي العسكري العام، في مؤتمر عقد بمعهد بحوث الأمن القوميّ يوم 2014/12/11،

تحت عنوان "تحديات القتال في مناطق مكتظة السكان". يُنظر: <http://www.law.idf.il/163-6967-he/Patzar.aspx>

³⁵ المادة 52(2) من المحضر الأول.

³⁶ المادة 52(3) من المحضر الأول.

"أهداف إرهابية". وعليه، فإنّ منظمة بتسيلم غير قادرة على معرفة الأسباب الكامنة من وراء قرار الجيش الإسرائيلي مهاجمة بيت معين، وما الذي حوّل هذا البيت، وفق منظور الجيش، إلى هدف عسكري شرعي.

إنّ الناطق العسكري الإسرائيلي تصرف على خلاف ذلك في كلّ ما يخصّ الاعتداء على البيوت السكنية التابعة لناشطي حركتي حماس والجهاد الإسلامي. ففي البيان الذي أصدره الناطق العسكري في اليوم الأول للعملية، 2014/7/8، جاء: "من بين الأهداف التي قُصفت أربعة بيوت لناشطين في تنظيم حماس الإرهابي ضالعين في النشاطات الإرهابية ويضلعون في توجيه وتنفيذ إطلاق صواريخ عامودية المسار صوب مناطق دولة إسرائيل".

لكن، وفي يوم الغداة، حاول الناطق العسكري تمويه حقيقة أنّ الجهاز الأمني الإسرائيلي يتعامل مع هذه المنازل السكنية كأهداف عسكرية شرعية، لا لسبب إلا هوية الشخص الذي يسكنها. وبدلاً من ذلك، بدأ الناطق العسكري بالادّعاء أنّ المسّ بهذه البيوت جرى نتيجة لاستخدامها، وقد تطرّق في البيانات التي نشرها في الأيام التالية إلى البيوت وكأنها "بنى تحتية عملياتية" أو "بنى تحتية قيادية للسيطرة على التنظيم"³⁷ أو "بنى تحتية إرهابية".³⁸

في مذكرة موقف نشرتها النيابة العسكرية الإسرائيلية بعد عدّة أيام على بدء القتال. وأدّعي في هذه الورقة أنّ حماس تستغلّ "المساكن الشخصية التابعة لقياديّ الذراع العسكرية، ومنهم من يسكنون مع أفراد عائلاتهم ومدنيين آخرين، لغرض تنفيذ العمليات الإرهابية. ويجري استخدام هذه البيوت من أجل تخزين الوسائل القتالية وتفعيل مراكز قيادة وسيطرة وإجراء علاقات عسكرية". وتدّعي النيابة أنّ هذه البيوت "يمكن أن تتحوّل إلى هدف عسكري شرعي، وفقاً لأحكام القانون الدولي".³⁹

في خطاب ألقاه المدّعي العسكري العام، العميد داني عفروني، بعد بضعة أشهر على انتهاء القتال، طرح مثل هذا الادّعاء أيضاً:

الكثير من القياديين في الذراع العسكرية التابعة لحماس، من المستوى المتوسط وفوق، حوّلوا شققهم، في واقع الأمر، إلى قاعدة أو مركز قيادة ميدانيين استقبلا المعلومات العسكرية ومنهما خرجت الأوامر إلى المرووسين، بما فيها أوامر تتعلق بعمليات ضدّ قوّاتنا وإطلاق الصواريخ صوب إسرائيل {...} وفي أثناء "الجرف الصامد" جرى استخدام البيوت الخاصة على نطاق واسع من أجل غايات عسكرية حقيقية. ولا شكّ في أنّ هذه تشكّل وفق قوانين القتال أهدافاً عسكرية يُسمح بمهاجمتها.⁴⁰

من الممكن حقّاً أن تشكّل المنازل السكنية التابعة لناشطي حماس أو التنظيمات الأخرى، أهدافاً عسكرية شرعية، إلا أنّ تعريفها على هذا الشكل يقتضي الإجابة على السؤال المتعلق بطبيعة استخداماتها العينيّ الذي جرى. الاختبار الذي وضعه القانون الإنساني الدولي للبتّ في كون مبنى ما "هدفاً عسكرياً" أم لا هو اختبار مزدوج: يجب على المبنى أن يسهم إسهاماً فعالاً في النشاط العسكري ويجب على المسّ به أن يمنح أفضلية عسكرية جليّة للجهة المعتدية.

³⁷ بيان الناطق العسكري يوم 2014/7/9 و2014/7/10. لمعينة النص الكامل يُنظر موقع الناطق العسكري:

<http://www.idf.il/1153-he/Dover.aspx>

³⁸ يُنظر مثلاً بيانات الناطق العسكري من يوم 2014/7/12، 2014/7/16 و2014/7/23.

³⁹ بيان الناطق العسكري يوم 2014/7/11، "وفقاً للقانون الدولي، البيت الذي استخدم لغاية عسكرية هو هدف شرعي".

⁴⁰ خطاب المدّعي العسكري العام في مؤتمر معهد بحوث الأمن القوميّ INSS، تُنظر الحاشية رقم 34.

وخلال ذلك، لم يجر في أي حالة من الحالات التي فصلها الناطق العسكري الإسرائيلي في بياناته، توضيح العلاقة بين البيت السكني الذي هُوجم وبين أي نشاط عسكري.

اكتفى الناطق العسكري بتفصيل ضلوع سكان البيوت في النشاطات الموجهة ضد إسرائيل في الراهن والماضي، من دون ربط هذا النشاط مع البيت نفسه. فعلى سبيل المثال، كتب الناطق العسكري في بيانه الصادر يوم 2014/7/12 ما يلي:

كجزء من تدمير البنى التحتية العمليّة، هُوجمت بنية تحتية عمليّة تابعة لعضو رفيع في حماس جنوبي القطاع، وهو عطية أبو نقيرة...
وُلد عطية أبو نقيرة عام 1976، وهو عضو رفيع في حماس برفح. وعلى مرّ السنين، كان ضالعا في نشاطات إرهابية كثيرة ضد إسرائيل وقوات الجيش الإسرائيلي، ومن ضمنها تنفيذ عمليات تفجيرية وإطلاق صواريخ عامودية المسار. في عام 2001 كان ضالعا في عملية تفجيرية فُجر فيها جزء من قاعدة "طرميت" بواسطة عبوة بالغة القوة وُضعت في نفق تحت القاعدة. وكان على مرّ السنوات ضالعا في إطلاق صواريخ ضد الدبابات وضد الطائرات وصواريخ صوب مناطق دولة إسرائيل وصوب قوات الجيش الإسرائيلي. وزد على ذلك أنه كان ضالعا جدا في تعزيز قوة تنظيم حماس الإرهابي. لقد كان أبو نقيرة ضالعا في القتال في حملتي "الرصاص المصبوب" و"عمود السحاب"، وقاد عمليات إرهابية ضد دولة إسرائيل.⁴¹

في بيان صدر يوم 2014/7/16، كتب الناطق العسكري الإسرائيلي أنه "من بين البنى التحتية العمليّة التي هُوجمت الليلة، البنية التحتية التابعة لمحمود الزغار الذي يشغل منصب عضو المكتب السياسي في قطاع غزة، ورئيس اللجنة السياسية ومديرية العلاقات العامة". وفي هذه الحالة فإنّ الناطق العسكري لا يشير بأي نشاط عسكري لصاحب البيت وهو أصلا لا يوضح ماهية العلاقة بين المبنى وهذا النشاط.

يرسخ النائب العسكري العام في خطابه إن القياديين في حماس حوّلوا بيوتهم إلى "مركز قيادة عمليّة" وأصدروا الأوامر بإطلاق النار على قوات الجيش وعلى مدنيين إسرائيليين. لكن، حتى لو كانت هذه الأقوال دقيقة (امتنع الجيش عن توفير أي أدلة تتعلق بذلك)، فإنّ السؤال يُسأل حول الاستخدام العيني الذي جرى لكل بيت وأسهم إسهاما فعلا في نشاط عسكري ما، ليحوّله بذلك إلى هدف عسكري. وتتعلق الإجابة بطابع النشاطات التي جرت في البيت ونطاقها. فعلى سبيل المثال، لا تُعتبر مكالمات هاتفية من البيت أو لقاء تم فيه استخداما يُسهم إسهاما فعلا للنشاط العسكري، إذ يمكن إجراؤهما في أي مكان آخر.

وفي ظل غياب معلومات عينية بخصوص الإسهام الفعّال للبيت في النشاط العسكري، والأفضلية الجليّة المتوقعة نتيجة لهدمه، فإنّ حقيقة سكن ناشط في الذراع العسكرية لحماس أو الجهاد الإسلامي في البيت لا تحوّل إلى هدف عسكري شرعي يُسمح بالمس به.

أنّ الاستخدام المتكرّر لمصطلح "بنية تحتية عمليّة" لا يثبت بحد ذاته أي أمر يخصّ أي استخدام عسكري تمّ في البيت، وفق الادعاء. وفي المقابل، يكشف الاستخدام المتكرّر للمصطلح عن محاولة صانعي السياسات منح صيغة قانونية لهذه الاعتداءات. التسويغات التي أوردها الناطق العسكري والنيابة العسكرية لهدم بيوت الناشطين غير مقنعة وثمة اشتباه بأنها كانت تهدف للتغطية على الدافع الحقيقي من وراء الهدم، ليس إلا: هوية

⁴¹ لمعاينة أمثلة أخرى يُنظر بيان الناطق العسكري يوم 2014/7/10.

ساكنيها. وعلى هذا النسق، فإنّ الحديث يدور في الواقع عن عشرات عمليات عقابيّة لهدم البيوت فوق رؤوس ساكنها- وهو أمر محظور بحدّ ذاته.

ليس بوسع منظمة بتسليم معرفة عدد الحالات التي قصف فيها الجيش أثناء القتال بيوتًا، لا لسبب إلا لهوية ساكنها، وعدد الحالات التي تمّ فيها الاعتداء لأسباب أخرى، مثل إخفاء الوسائل القتاليّة فيها. زدّ على ذلك أيضًا أنّ بتسليم غير قادرة على معرفة عدد الحالات التي قصف فيها الجيش بيوتًا بسبب هوية ساكنها والتي كانت فارغة من ساكنيها في تلك الساعة، وعدد الحالات التي انهار فيها البيت على ساكنيه. الجيش وحده يعرف الإجابات على هذه الأسئلة، وهو يمتنع عن توفير المعلومات التفصيليّة بخصوص هذه المسألة. بعد أسبوع على بدء العملية، لم ينشر الإعلام إلّا أنّ الجيش هاجم قرابة مئة بيت تابعة "لقياديين في حماس والجهد الإسلامي".⁴²

وقد أشارت منظمة بتسليم في السابق إلى التفسير الفضفاض لمصطلح "هدف عسكريّ" والذي يعمل الجيش الإسرائيليّ وفقًا له. وقد انعكس هذا التفسير، مثلاً، في اليوم الأول لعملية "الرصاص المصبوب"، يوم 2008/12/27، إذ قصف الجيش وقتها بناية الشرطة الرئيسة في غزة وقتل 42 طالبًا شرطياً. وفي الأيام التي تلت ذلك قصف الجيش الإسرائيليّ مبنى المجلس التشريعيّ وعدة وزارات حكوميّة في القطاع. وقد برّرت جهات رسميّة إسرائيلية هذه الاعتداءات بادّعاء أنّ "كلّ ما هو مرتبط بحماس هو هدف شرعيّ".⁴³ التفسير القائل بأنّ بيوت الناشطين الخاصّة هي أهداف شرعيّة طُبّق أيضًا أثناء عملية "عمود السحاب" في تشرين الثاني 2012. ففي بيان نشره موقع جهاز الأمن العام (الشّباك) عند انتهاء القتال جاء أنّ الجيش الإسرائيليّ هاجم أثناء العملية "نحو 30 بيتًا تابعة لقياديين رفيعي المستوى في الذراع العسكريّة التابعة لحماس، حيث أستخدم بعضها كمخازن للوسائل القتاليّة".⁴⁴ تتيح هذه التفسيرات لمصطلح "هدف عسكريّ" المجال أمام تسييره أيضًا على أشياء وأمور مدنيّة جليّة، يُحظر الاعتداء عليها.

ب. تفسير مَرْن لما يعتبر "ضرر عرضي" قانوني

تلتزم القوّات المقاتلة بالعمل وفق "مبدأ التناسبيّة"، الذي ينصّ على وجوب الامتناع عن هجوم ما إذا ما كان المسّ المتوقّع بالمدينيين نتيجة له مبالغًا به، قياسًا بالأفضليّة العسكريّة المرجّوة من وراء هذا الهجوم.⁴⁵ ولا يكون هذا المبدأ ذا صلة، طبقًا، إلّا إذا كان هدف الهجوم هدفًا عسكريًا شرعيًا، ولولا ذلك فإنّ الهجوم نفسه لا يكون شرعيًا أصلًا، من دون علاقة بـ "الأضرار العرضيّة" المتوقعة.

يُفحص حجم الهجوم بناءً على التوقعات بخصوص الضرر المتوقع الذي سيلحق بالمدينيين والأفضليّة العسكريّة التي ستنتج عنه، وليس بناءً على الضرر الذي يقع فعلاً. وعليه، فإنّ الإجابة على السؤال حول ما إذا كان الجيش قد تصرف وفق مبدأ التناسبيّة أم لا، مرهونة بالمعلومات التي كانت متوفّرة لديه أثناء تنفيذ الهجوم: ما هي الأفضليّة العسكريّة التي توفّر تحقيقها في كلّ واحدة من الهجمات؟ ما هي المعلومات التي كانت متوفّرة لدى الشخص الذي أمر بتنفيذ الهجوم وما هي المعلومات التي كان عليه معرفتها بخصوص

⁴² جيلي كوهن، جاكى خوري، "إفادات: الجيش الإسرائيليّ لم يحرص على الإنذار المبكر قبل القصف"، هآرتس، 2014/7/14.

⁴³ أقوال الرائد أفيطال لايفوفتس من الناطق العسكريّ، يُنظر "All-Out War"، Griff Witte and Sudarsan Raghavan, "Declared on Hamas", **Washington Post**, December 30, 2008.

للتحقيق في نشاطات الجيش أثناء حملة الرصاص المصبوب، 2009/1/18-2008/12/27، ص 8-11.

⁴⁴ بيان موقع جهاز الأمن العام (الشّباك) في شهر كانون الأول 2012. بخصوص هذه المسألة يُنظر: بتسليم، انتهاكات حقوق الإنسان أثناء حملة عمود السحاب، 2012/11/14-2012/12/21، أيار 2013، ص 26-27.

⁴⁵ المادة 51(5)(ب) من المحضر الأول.

وجود مدنيين في الموقع المستهدف؟ هل كان بالإمكان تحقيق الأفضلية العسكرية ذاتها بطرق أخرى؟ وأسئلة أخرى على هذا النسق.

إمتنع الجيش الإسرائيلي عن توفير الإجابات على هذه الأسئلة للجمهور. ولذلك فإنّ بتسيلم غير قادرة في الغالبية الساحقة من الحالات على معرفة الاعتبارات التي أدت إلى تنفيذ الهجمات. مع ذلك في بعض الاستقصاءات التي أجرتها بتسيلم طُرح بعض الفرضيات المختلفة بخصوص أسباب الهجوم على البيت: وجود ناشط حماس في البيت أثناء الاعتداء أو قبل ساعات منه؛ حقيقة أنّ ابن صاحب البيت ناشط في أحد التنظيمات الفلسطينية المسلحة في مستوى ما؛ إطلاق صواريخ القسام من مكان قريب من البيت وغيرها. إلاّ أنه في غياب بيان رسمي من الجيش، فإنّ بتسيلم لا تملك أي وسيلة للبت بشكل قاطع في مسألة السبب الكامن من وراء قصف بيت معين، وما إذا كان هذا القصف يستوفي تعريف الهدف الشرعي، وإذا كان يستوفي حقاً- فهل يمكن اعتبار الهجوم تناسيياً.

إكتفى المدعي العسكري العام بالادعاء العام أنّ الجيش الإسرائيلي نشط وفقاً لمبدأ التناسبية. فقد ادّعى المدعي العسكري العام أنّ "الجيش يحرص على تنفيذ الهجمات من خلال تطبيق مبدأ التناسبية وبعد اتخاذ سلسلة من وسائل الحذر، وأحياناً أكثر ممّا يتطلبه القانون".⁴⁶ وفي موضع آخر، قال المدعي العسكري العام إنّّه ليس من الصواب، وفقاً للقانون الدولي، فحص قانونية العمليات التي ارتكبتها إسرائيل أثناء القتال وفق عدد القتلى الشامل، ويجب فحص كلّ هجوم على حدة، "وفي كلّ حال يجب فحص معقولية قرار القائد وفقاً للمعلومات التي كانت متوفرة لديه وقت الهجوم، وليس فحصها بعد أثر". وأضاف أنّ "القانون هو على ما يبدو الأداة الأكثر نجاعة في سبيل دحض الادعاءات المطروحة ضدنا".⁴⁷

مع ذلك، لم يوفر المدعي العسكري العام أيّ معلومات يمكن أن تدعم ادعاءاته القائلة بأنّ الجيش الإسرائيلي عمل وفق هذا المبدأ. صحيح أنّ التناسبية تُفحص وفقاً للمعلومات التي كانت متوفرة لدى القائد الذي أمر بتنفيذ الهجوم، إلاّ أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الاعتداءات صوّبت باتجاه البيوت السكنية، وأنّ قسمًا كبيراً منها نُفذ أثناء الليل، وكان يجب أن تكون الإصابات الجسيمة التي لحقت بالمدنيين متوقعة أثناء اتخاذ القرار بتنفيذ الهجوم. وتطرح هذه التساؤلات بحدة أكبر خصوصاً بعد تنفيذ عدة هجمات كهذه أثناء القتال أدت إلى مقتل الكثير من المدنيين. ولم يوضح المدعي العسكري العام أيضاً ما الذي يعتبره من وجهة نظره مساً "معقولاً" بالمدنيين، وهو لم يرق حتى بالتلميح إلى الأفضلية العسكرية التي توفّق الجيش تحقيقها.

في ظلّ هذه الظروف، كان على المدعي العسكري العام توضيح المراكز التي استند عليها حين قال إنّ الجيش نشط وفقاً لمبدأ التناسبية: هل كان هذا الضرر متوقعاً، ولكنه أعتبر "معقولاً"- وعندها كان عليه أن يشير إلى الأفضلية العسكرية الجلية التي تبرّر هذا الأذى وفقاً لمخطّطو الاعتداء؛ أو أنّ إلحاق الأذى بالمدنيين لم يكن متوقعاً- وعندها كان عليه أن يوضح كيف حدث ذلك وما هي العبر التي استخلصت من ذلك.

إنّ المسّ الجسيم الذي لحق بالسكان المدنيين يكتسب فداحة أكبر إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الوسائل المتاحة أمام الجيش الإسرائيلي، والتي تسمح له بتقليص مثل هذا المسّ بدرجة كبيرة. أولها، قدرته التكنولوجية التي

⁴⁶ خطاب المدعي العسكري العام في مؤتمر معهد بحوث الأمن القومي INSS، تُنظر الحاشية رقم 34.
⁴⁷ المدعي العسكري العام، في خطاب بمؤتمر جمعية القانون الجماهيري- الجيش في كلاب القضاء، 2015/1/11. نُشر في موقع النيابة العسكرية. يُنظر: <http://www.law.idf.il/163-7040-he/Patzar.aspx>.

تمكّنه من إصابة الأهداف التي اختيرت بدقة عالية. وفي منشور صدر عن سلاح الجو الإسرائيلي بخصوص نشاطاته أثناء عملية "الجرف الصامد"، قال أحد الطيارين: "نحن ننقذ حيوات الناس"، ثم فسّر ذلك بعدد المرّات التي تأجل فيها هجوم ما إلى أن أخلّى المدنيون موقع الهدف. وأوضح طيار ثالث: "نحن نستخدم الذخيرة الدقيقة التي تمكّننا من مهاجمة الكثير من الأهداف خلال وقت قصير وفي الأماكن الصحيحة". ووفقاً للموقع، فإنّ الجهد المبذول للحيلولة دون المسّ بالسكّان المدنيين تمّ "بدءاً بمستوى التخطيط وحتى التنفيذ".⁴⁸ وفي المقال الذي نُشر في لسان حال الذراع البريّة حول عملية "الجرف الصامد" جرى وصف استخدام سلاح المدفعية أثناء القتال لصاروخ "تموز" - الذي يُعتبر "ذخيرة موجّهة دقيقة". وقال قائد الوحدة التي تستخدم هذه الصواريخ، المقدّم تومر، واصفاً نشاط الوحدة: "الأفضليّة لدينا قياساً للوسائل الأخرى تكمن في الضرر العرضي المتدنّي وفي مناليتنا المتواصلة في مقابل قائد اللواء".⁴⁹

ثانياً، يملك الجيش الإسرائيلي قدراتٍ استخباريّة عالية جدّاً في كل ما يخصّ سكان القطاع. فالمعلومات الاستخباريّة هي التي مكّنت الجيش من معرفة المواقع الدقيقة للأشخاص الذين كانوا مستهدفين. وفي لسان حال سلاح البريّة المذكور أعلاه، جرى بإسهاب وصف وسائل الاستطلاع على مناطق القطاع المتوقّرة لدى الجيش الإسرائيلي، ومن بينها بالونات الاستطلاع والطائرات بلا طيار والمستطيلات اللاتي يقمن بتحليل النتائج.⁵⁰

في إطار سياسة الاعتداء على البيوت، اعتدى الجيش الإسرائيلي على عشرات البيوت التي انهارت فوق رؤوس ساكنيها. وفي كلّ واحدة من هذه الهجمات قُتل الكثير من المدنيين الذين لم يكونوا ضالعين في القتال. وبعد وقوع هجمات متكرّرة سقط ضحيتها الكثير من المدنيين، كان على صنّاع القرار توقّع المسّ الجسيم الذي تلحقه مثل هذه الهجمات. ورغم ذلك، تواصلت هذه الهجمات على طول فترة القتال ولم يطرأ أيّ تغيير على سياسة إطلاق النار على البيوت. ومع غياب إثبات بأنّ الأفضليّة العسكريّة التي توخّى الجيش تحقيقها عبر هذه الهجمات كانت جليّة وحقيقيّة، فلا مفرّ من التوصل إلى الاستنتاج القائل بخرق مبدأ التناسبية.

جـ غياب الإنذارات أو إصدار إنذارات غير فعّالة

سعيّاً لتقليص المسّ اللاحق بالمدنيين، طُلبت القوات المقاتلة بمنحهم "إنذاراً ناجعاً مسبقاً" قبل الاعتداء، "إلا إذا لم تسمح الظروف بذلك"، كي يكونوا قادرين على حماية أنفسهم.⁵¹

إنّ واجب اتباع وسائل الحذر منصوص عليه في القانون الإنسانيّ الدوليّ. ولا يجري الحديث هنا عن منّة يقوم بها الجيش لصالح السكّان، بل عن أداء واجب واضح وصريح يقع عليه. وعندما يتلقّى السكّان إنذاراً غير مفيد، فإنّه لا يُعتبر إنذاراً ناجعاً. وعلى أيّ حال، فإنّ أيّ إنذار -سواءً أفعّالاً كان أم لا- لا يُعفي الجيش من واجبه مواصلة اتخاذ وسائل الحذر الممكنة من أجل الامتناع عن المسّ بالمدنيين ولا يسمح للجيش بالتصرف من منطلق أنّ المنطقة أو البيت المستهدفين قد أصبحا خاليين من المدنيين فعلاً.

⁴⁸ يُنظر: "جهاز 'حوزي' يفحص كل نقطة في قطاع غزة"، موقع سلاح الجو، نُشر يوم 2014/7/9 (يُنظر <http://www.iaf.org.il/4410-42173-he/IAF.aspx>)، "الهجمات والاستخبارات: طائرات 'سوفاه' في عملها"، موقع سلاح الجو، نُشر يوم 2014/7/10 (<http://www.iaf.org.il/4410-42174-he/IAF.aspx>).

⁴⁹ يهوتان شر، "وتر مضبوط"، في اليابسة، لسان حال الذراع البريّة، تشرين الأول 2014، العدد 29، ص 15.

⁵⁰ أفيجال بوكوبز، الجمع في الجبهة، المصدر السابق، ص 22.

⁵¹ المادة 57(2)(ج) من المحضر الأول.

في أثناء القتال، استخدم الجيش الإسرائيلي وسيلتي إنذار أساسيتين:

1. إنذار لسكان بيت معين بأن الجيش على وشك الهجوم

قام ممثل عن الجيش الإسرائيلي، في بعض الحالات، بالاتصال بسكان بيت معين، وأخبرهم بنيتهم قصف البيت وأمرهم بإخلائه؛ وفي حالات أخرى أعلن الجيش للسكان عن نيتهم قصف بيت مجاور وأمرهم بإنذار الجيران.

أحدى الوسائل التي استخدمها الجيش الإسرائيلي لكي ينذر سكان البيت، وسيلة أطلق عليها اسم "اقرع السقف". ففي إطار هذه الطريقة قُصف سقف البيت الذي يستهدفه الجيش بصاروخ صغير نسبياً، بغية إبلاغ سكانه بأن البيت سيُقصف بواسطة صاروخ أكبر خلال فترة قصيرة، ولذلك عليهم تركه.

وقام السكان في بعض الحالات بإخلاء بيوتهم ولم يلحقهم الأذى. وفي حالات أخرى، لم تكن الإنذارات فعالة لأسباب مختلفة؛ فأحياناً لم يكن يُمنح السكان ما يكفي من الوقت لترك بيوتهم، وأحياناً لم يكن من الواضح عن أي بيت مستهدف يتحدثون- وخصوصاً في الحالات التي صدر فيها الإنذار بطريقة "اقرع السقف"، تزامناً مع هجمات أخرى في المنطقة، إذ استصعب السكان ملاحظة إصابة الصاروخ الصغير للسقف. وفي حالات أخرى قام السكان الذين تلقوا الإنذار بترك البيت فعلاً، إلا أنّ القصف لحق بيوتاً مجاورة أيضاً أصيب سكانها الذين لم يتلقوا إنذاراً.

وفي بعض الحالات التي فحصتها بتسليم، قال سكان البيت إنهم لم يتلقوا أي إنذار قبل قصف البيت، ولذلك لم يتركوه. وليس في وسع بتسليم معرفة ما إذا كان الجيش قد أصدر إنذاراً للسكان حقاً ولم يفهم، أو أنه لم يصدر مثل هذا الإصدار قط.

2. إنذار يطلب من السكان مغادرة مناطق واسعة

وَزَّع الجيش الإسرائيلي في بعض المناطق بالقطاع مناشير دعا من خلالها السكان إلى إخلاء بيوتهم. فهذا ما حصل، من ضمن سائر المناطق، في منطقة بيت حانون وبيت لاهيا شمالي القطاع، وفي حيي الشجاعية والزيتون في مدينة غزة وفي بني سهيلة وخزاعة في مركز القطاع. وعلى سبيل المثال، في الليلة الواقعة بين 2014/7/12 و2014/7/13، وقبل الاجتياح البري للقطاع، وَزَّع الجيش الإسرائيلي في شمال القطاع مناشير طالب السكان فيها بإخلاء بيوتهم حتى الساعة 12:00 ظهرًا. وجاء في المنشور الذي وَزَّع على سكان بيت لاهيا ما يلي:

إلى سكان بيت لاهيا،

سيقوم الجيش الإسرائيلي بالعمل بقوة وعزم للضرب من الجو العناصر الإرهابية والبنى التحتية التابعة لها في المناطق التي تطلق منها الصواريخ باتجاه دولة إسرائيل وهي كالاتي: من شرق العطاردة وحتى شارع السلاطين ومن غرب وشمال معسكر جباليا. من أجل سلامتكم: عليكم إخلاء بيوتكم حالا وفورًا والاتجاه إلى جنوب جباليا البلد عبر الطريق التالي: شارع الفالوجا وهذا حتى الساعة 12 ظهرًا يوم الأحد 2014/7/13. هذه العمليات مؤقتة وقصيرة. كل من سيخالف هذه التعليمات ولا يخلي بيته على الفور يعرض حياته وحياة أبنائه عائلته للخطر.⁵²

⁵² بيان الناطق العسكري يوم 2014/7/13.

قام عشرات آلاف السكان، فعلاً، بإخلاء بيوتهم في أعقاب هذه الإنذارات. لكن، وفي بعض الحالات التي استقصتها بتسليم، وبعضها معروض أعلاه، قُتل بالذات العائلات التي فرّت من بيوتها في أعقاب أوامر الجيش الإسرائيلي إلى الأحياء التي أُعتبرت أكثر أماناً.

ظلّ قسم من السكان في بيوتهم- سواءً أطواعية كان أم قسرياً رغم الإنذارات، لم يكن لهم في حالات كثيرة أمكنة أخرى يلجؤون إليها، إذ أنّ الجيش الإسرائيلي هاجم أثناء القتال كلّ أرجاء القطاع. لم يكن مكان واحد آمن، وفي غياب وجود الملاجئ أو المناطق الآمنة، لم يكن بوسع السكان حماية أنفسهم. زدّ على ذلك أنّ السكان لم يستطيعوا مغادرة القطاع، إذ أنّ إسرائيل ومصر أغلقتا المعابر إلى مناطقها، كل واحدة بدورها، فظلّ السكان عالقين فيه. حتى من غادر، وبما أنّ القتال استمرّ لأسابيع طويلة، عاد بعض السكان إلى بيوتهم من أجل التزوّد بالثياب والأغطية وما شابه.

في مثل هذه الظروف، لا يمكن للإنذارات الجارفة التي قدمها الجيش الإسرائيلي لم تُمكن السكان من حماية أنفسهم، لذلك فإنها تُعتبر إنذارات غير فعّالة، وفي واقع الأمر -وحتى لو لم يكن ذلك مقصوداً- فإنّ النتيجة لهذه الإنذارات تمثّلت في دبّ الرعب والخوف بين السكان، من دون أن يكونوا قادرين على فعل شيء.

ورغم هذا الواقع، رأى الجيش الإسرائيلي في المناطق التي ورّع فيها المناشير مناطق أخلّيت من سكّانها وتعامل معها على أنها أهداف عسكرية شرعية، يمكن مهاجمتها من دون اتخاذ أيّ وسائل وقائية مسبقاً. هذا ما قاله الرائد أميتاي كرنيك:

نحن نحاول خلق واقع تكون المنطقة التي نقاتل فيها معقّمة، بحيث أنّ كلّ شخص نشاهده يكون مشتبهاً بالنشاط الإرهابي. وفي المقابل نحن نبذل كلّ الجهود من أجل إبعاد السكان، سواءً عبر توزيع المناشير أو القصف المتواصل. نحن نرغم كل من لم يقتنع في البداية على الاقتناع في النهاية، إلى أن نتوصّل إلى وضعيّة يتحول فيها الحيّ إلى مدينة أشباح، ولذلك فكلّ من يظهر فجأة يتحوّل فوراً إلى مشتبّه بممارسة الإرهاب.⁵³

وقد تفاقم المسّ بالسكان المدنيين في هذه المناطق نتيجة لاستخدام النيران المدفعية، وهي في جوهرها نيران غير دقيقة. حيث قام الجيش الإسرائيلي باستخدام النيران المدفعية أثناء القتال وعلى نطاق واسع، في داخل المناطق السكنية. وقد ورد في لسان حال الذراع البرية أنّ 14,500 قذيفة دبابة ونحو 35 ألف قذيفة مدفعية مختلفة أطلقت أثناء القتال.⁵⁴ ووفقاً لما نشرته صحيفة "هآرتس"، قام ضابط رفيع المستوى في قيادة الأركان الإسرائيلية بالتصديق على أنّ القوّات الإسرائيلية أطلقت قذائف أكثر من المخطّط، وصل عددها على الأرجح أربعة أضعاف من النيران المدفعية التي أطلقت أثناء عملية "الرصاص المصبوب".⁵⁵

فبعد الإصابة تؤدّي نيران المدفعية إلى إصابات قاتلة على مدى 50-150 متراً من الهدف، وجرح الأشخاص الموجودين على نطاق 100-300 متر منها.⁵⁶ هذا ما قاله جنديّ سابق في سلاح المدفعية:

⁵³ الرائد كرنيك هو رئيس قسم النظريات في قيادة ضابط سلاح الراجلة والمظليين الرئيسي. أفيجايل بوكوزا، "قتال مختلط، في اليابسة، لسان حال الذراع البرية، تشرين الأول 2014، العدد 29، ص 62.

⁵⁴ "جرد المخزون"، في اليابسة، لسان حال الذراع البرية، تشرين الأول 2014، العدد 29، ص 47.

⁵⁵ عاموس هرئيل وجيلي كوهن، "مصدر رفيع في قيادة الأركان: القوّات التي قتلت في غزة أطلقت ذخيرة أكثر مما خطط الجيش". هآرتس، 2014/8/14، عاموس هرئيل وجيلي كوهن، "قصف غزة: الجيش الإسرائيلي استخدم النيران المدفعية غير الدقيقة أربعة أضعاف الرصاص المصبوب"، هآرتس، 2014/8/15.

⁵⁶ Human rights Watch, **Indiscriminate Fire - Palestinian Rocket Attacks on Israel and Israeli Artillery Shelling in the Gaza Strip**, July 2007. يُنظر: عاموس هرئيل وجيلي كوهن، "قصف غزة: الجيش الإسرائيلي استخدم النيران المدفعية غير الدقيقة أربعة أضعاف الرصاص المصبوب"، هآرتس، 2014/8/15.

لا يمكن توجيه هذه القذائف بشكل دقيق وهي لا تهدف لإصابة أهداف معيّنة. ثمة عوامل عديدة مثل رطوبة الجو ودرجة حرارة الفوهة واتجاه الريح، يمكن أن تحسم فيما إذا كانت القذيفة ستقع على بعد 30 مترًا أو حتى مئة متر عن المكان الذي صُوِّت نحوه. لذلك فإنّ بطّارية المدفعية التي تحوي عدّة فوّهات، تطلق صليّة قذائف صوب اتجاه معيّن مع الدراية بأنّ الإحصانيّات تلعب دورها، وبأنّ انتشار وكميّة الخراب الحاصلة نتيجة لإطلاق عدد كبير من القذائف سيؤدّيان بالضرورة إلى إصابة الموقع المستهدف.⁵⁷

في المناطق العمرانيّة المكتنّزة مثل قطاع غزة، يمكن لسلّاح يتراوح مدى خطئه عدة عشرات من الأمتار وأكثر، أن يُلحق إصابات قاتلة بين السكان المدنيّين غير الضالعين في القتال. فحتى لو كانت في هذه المناطق بيوت أُستخدمت لأغراض عسكريّة، وحتى لو صدرت إنذارات للمدنيّين، إن اختيار الجيش الإسرائيليّ بالتعامل مع هذه الأحياء وكأنّها أهداف عسكريّة، يناقض القواعد والأحكام التي ينصّ عليها القانون الدوليّ والذي وفقه استخدام سلاح غير دقيق في داخل أحياء سكنيّة مدنيّة خيارًا غير قانونيّ.

⁵⁷ عيدان برير، "القصف المدفعيّ مثل الرولينا الروسية، وأنا لديّ تجربة في الموضوع"، سيحاه ميكوميت، 2014/8/5. يُنظر: <http://mekomit.co.il/%D7%99%D7%A8%D7%99-%D7%90%D7%A8%D7%98%D7%99%D7%9C%D7%A8%D7%99-%D7%94%D7%95%D7%90-%D7%A8%D7%95%D7%9C%D7%98%D7%94-%D7%A8%D7%95%D7%A1%D7%99%D7%AA>

استنتاجات

قُتل في أثناء القتال في قطاع غزة بصيف عام 2014 أكثر من 2,200 فلسطيني، وجرح الآلاف. ودُمّرت عشرات آلاف البيوت وظلّ مئات آلاف الأشخاص من دون مأوى. وأطلقت في هذه الفترة صوب إسرائيل آلاف القذائف وقذائف الهاون، وقُتل خمسة مدنيين و67 جنديًا.

تمثّلت إحدى الصفات المميّزة والخاصة لجولة القتال الحاليّة في الاعتداءات الكثيرة على البيوت السكنيّة وهدمها فوق سكّانها. ومن بين أحداث هذا الصيف، فإنّ هذا الأمر يثير الرّعب بشكل خاص: عشرات عمليّات القصف الجوّيّة والبريّة التي قتلت مئات الأشخاص، وقصص العائلات الفلسطينيّة المتكرّرة عن قتلها الكُثر، وعائلة تلو العائلة، تهّم بيتها وعالمها فوق رأسها، خلال ثانية واحدة. حقّقت منظمة بتسيلم في 70 حالة كهذه، قُتل فيها 606 شخصًا، إذ كانت الغالبية الساحقة من القتلى أشخاصًا لم يشاركوا في القتال: أكثر من 70% منهم كانوا دون سنّ الثامنة عشرة، وفوق سنّ الستين أو من النساء.

وقد طُبّقت سياسة قصف البيوت هذه على طول أيام القتال، وفي جميع أرجاء القطاع. ومن خلال الإفادات التي جمعها باحثو بتسيلم من سكان البيوت ومن شهود عيان، تتضح معالم الفظاعة التي مُورست: فهم يصفون، مرة بعد أخرى، عجزهم واليأس الذي تملّكهم عندما أيقنوا أنهم عاجزون عن حماية أولادهم وأنفسهم حتى في داخل بيوتهم، والألم الهائل العصيّ على التحمّل في فقدان عائلة كاملة.

لم تكن هذه الاعتداءات مبادرة ذاتيّة من الجنود أو الطيّارين أو القيادة الميدانيّة، بل تعبير وانعكاس للسياسة التي وضعها المستوى السياسي والمستوى العسكري رفيع المستوى. لقد دعم هذا المستويان الاعتداءات وكرّرا مرة بعد أخرى الادّعاء القائل بأنّ هذه الاعتداءات تستوي مع أحكام القانون الإنسانيّ الدوليّ، وتتصلّا من أيّ مسؤولية عن المسّ بالمدنيين، بل ألقوا بهذه المسؤوليّة كاملة على حركة حماس وعلى طرق عملها.

على هذا النسق، قال رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو إنّ "الأذرع الأمنيّة تبذل كلّ جهد للامتناع عن المسّ بالمدنيين وفي حال وقوع مسّ بالأبرياء فإنّ هذا نابع من اختباء حماس المتعمّد من وراء المدنيين الفلسطينيين".⁵⁸ وقال المستشار القضائيّ للحكومة يهودا فاينشتين إنّ إسرائيل ملزمة باتباع أحكام القانون، إلا أنّ "التنظيمات الإرهابيّة تستخدم السكان المدنيين بشكل تهكمي وإجرامي كدرع بشريّة في وجه نشاطات الجيش الإسرائيليّ. في مثل هذا الواقع، وللأسف، حتى الهجمات القانونيّة والتناسيّة التي تتمّ وفقًا للقانون الدوليّ، يمكن أن تؤدّي إلى المسّ غير المتعمّد وغير المرغوب بالمدنيين وبالممتلكات المدنيّة".⁵⁹ وعلى هذا النسق، قال رئيس الأركان بيني جنتس، إنّ "المحصّلة في غزة ماحقة، وهذا الذنب المأساويّ يقع على كاهل قياديّ حماس الذين نشطوا من قلب التجمّعات السكنيّة".⁶⁰

صدرت مثل هذه التصريحات في السابق أيضًا، بعد عملية "الرصاص المصبوب" في كانون الثاني 2009، وبعد عملية "عمود السحاب" في تشرين الثاني 2012.⁶¹ لكنّ هذه التصريحات لم تكن صحيحة وقتها وهي ليست صحيحة الآن. صحيح أنّ تنظيم حماس والتنظيمات المسلّحة الأخرى التي تنشط في القطاع لا تنشط وفق أحكام القانون الإنسانيّ الدوليّ، وهي حتى لا تدّعي أنها تفعل ذلك. وكما أوضحت بتسيلم قبل القتال

⁵⁸ يوف زيتون، "جنديان أصيبا بصلية قذائف على إشكول"، Y-net، 2014/7/10.

⁵⁹ رسالة من يهودا فاينشتاين، المستشار القضائيّ للحكومة، إلى المحامية تمار فلدمن من جمعية حقوق المواطن، يوم 2014/8/5.

⁶⁰ يوف زيتون، "قائد الأركان: حماس تضررت كثيرًا، الجيش باق في محيط غزة. الحقول ستخضّر هناك"، Y-net، 2014/8/6.

⁶¹ يُنظر: بتسيلم، مسار التحقيق في نشاطات الجيش أثناء حملة الرصاص المصبوب، 2009/1/18-2008/12/27، ص 8-11؛ بتسيلم، انتهاكات حقوق الإنسان أثناء حملة عمود السحاب، 2012/12/21-2012/11/14، أيار 2013.

وأثناءه وبعده، فإنّ حماس انتهكت هذه الأحكام، وعلى الأخصّ الواجب الملقيّ عليها بالتمييز بين الأهداف المدنيّة وبين الأهداف العسكريّة: فلم ينحصر الأمر في أنّ حماس أطلقت النار صوب مدنيّين إسرائيليين وأهداف مدنيّة إسرائيليّة، بل أنها فعلت ذلك من خلال نشاط أفرادها من داخل السكان المدنيّين، وهم يطلقون النار من أماكن مجاورة لبيوت المدنيّين، ويدفون السلاح في بيوت المدنيّين ويحفرون الأنفاق من تحتها. هذا الاختلاط بالسكان المدنيّين يناقض القاعدة الأساسيّة جدّاً في القانون الإنسانيّ، التي تسعى لتقليص المسّ بالمدنيّين قدر الإمكان وإبعادهم عن مناطق القتال.

وفي ظلّ هذا الواقع، فإنّ المسألة المطروحة للنقاش تتمثل في طابع الاستنتاجات التي يحق لصنّاع السياسات استخلاصها من تصرفات حماس والتنظيمات الفلسطينيّة المسلّحة الأخرى. ووفقاً لأقوال رئيس الحكومة والمستشار القضائيّ للحكومة وقائد الأركان، التي وردت أعلاه، يتّضح أنهم يقولون بأنّ المسؤوليّة بخصوص اتباع وسائل الحذر والوقاية تتوزع بين الجيش الإسرائيليّ وبين حماس. فلنأخذ كمثال الحالة التي فعلاً خبّات فيها حماس قذائف القسام في بيت سكنيّ مدنيّ وحولته بذلك الى هدف عسكريّ، يسمح بمهاجمته. وفقاً للتفسيرات الإسرائيليّة، سيبدل الجيش جهده لإنذار سكان قبل القصف. في حال حقّق الإنذار هدفه ولم يلحق الأذى بالمدنيّين، يُمكن لإسرائيل عندها أن تستخدم هذه الحالة كدليل على أنّ الجيش ينشط وفق القانون الإنسانيّ الدوليّ. وفي حال لحق الأذى بالمدنيّين -سواءً مع إنذار أم من دونه- فإنّ المسؤوليّة عندها تقع على حماس.

وحتى لو قبلنا بهذا التفسير، فإنّ هذا يعني أنّ إسرائيل متحرّرة من أيّ قيد كان، وأنّ أيّ ردّ من طرفها على أفعال حماس، مهما كانت نتائجه فظيعة، هو ردّ شرعيّ. هذا التفسير غير معقول وغير قانونيّ، وهو يفرغ من مضمونها القاعدة التي تنصّ على عدم اعتناق الطرف الثاني من واجبه تجاه السكان المدنيّين والمواقع المدنيّة، حتى لو انتهك الطرف الأوّل الأحكام والأوامر.⁶²

يهدف هذا التفسير لصدّ أيّ ادعاء سلقيّاً بأنّ إسرائيل انتهكت أحكام القانون الإنسانيّ الدوليّ. وهو يتركّز بشكل حصريّ في النوايا المعلنة لصنّاع السياسات -التي لا يمكن فحصها بتاتاً في ظلّ غياب معلومات رسميّة- ومن خلال التجاهل التامّ لمحصّلات أفعالهم، حتى عندما تكون هذه المحصّلات فتاكّة ومتكرّرة، المرّة بعد الأخرى. فبعد عدّة أيام على بدء القتال لم يعد أيّ مجال للشكّ لدى صنّاع السياسات بخصوص النتائج المتوقّعة لاستمرار اتباع سياسة الهجوم على البيوت.

بناء على ما سبق، يجب رفض الادّعاء القائل بأنّ سياسة قصف البيوت هي سياسة قانونيّة. فهذا الادّعاء يتجاهل روح وغايات القانون الإنسانيّ الدوليّ، الذي يهدف أولاً وأخيراً لتقليص المسّ بالسكان المدنيّين قدر الإمكان. إنّ عدم قانونيّة هذه السياسة قائم على طولها وعرضها: بدءاً من التفسير الفضفاض وغير القانونيّ لما يمكن اعتباره هدفاً شرعيّاً، وعبر إفراغ مبدأ التناسبيّة من مضمونه، وانتهاءً بالتحجّج باتباع وسائل حذر غير فعّالة.

صحيح أنّ الجيش الإسرائيليّ نشط في حالات معيّنة وفق القواعد الملزمة له: فقد أظهرت وسائل الإعلام وبتوسّع عدة حالات ألغى فيها الهجوم بعد مشاهدة أطفال في منطقة الهدف. ولكن في المقابل، لحق الأذى الكبير بالمدنيّين وممتلكاتهم في عشرات الحالات الأخرى، بما فيها حالات يتطرّق إليها هذا التقرير. هذه الحالات لم تكد تحظّ بأيّ تغطية إعلاميّة وفضّلت الجهات الرسميّة، عمومًا، عدم تفسيرها. وبدلاً من ذلك، فضّلت هذه الجهات مواصلة الادّعاء أنّ الجيش نشط وفقاً للقانون، من دون تدعيم مثل هذا الادّعاء. فعلى سبيل المثال، لخصّ المدّعي العسكريّ العام، العميد داني عفروني، عملية "الجرف الصامد":

⁶² المادة 51(8) من المحضر الأول.

استنتاجنا أنّ الجيش الإسرائيلي لم يهاجم إلا أهدافاً عسكرية، وليس بسبب مبدأ التمييز، بل لأنّه يحرص على "طهارة سلاحه". الجيش الإسرائيلي يبذل جهوداً جبّارة من أجل تقليص المسّ اللاحق بغير الضالعين، ولا يأتي هذا بسبب (مبدأ) التناسية، بل ينبع من قيمة "حياة البشر".⁶³

لم ترد هذه الأقوال قبل بدء القتال بل في أيامنا هذه، بعد عدّة أشهر على انتهائه، حين باتت نتائجه معروفة: مئات المدنيين القتلى وعشرات العائلات التي أبيدت. وفي ضوء مثل هذه النتائج، يصعب وصف هذا الواقع بتعابير مثل "طهارة السلاح" و"قيمة حياة البشر"، وهما أبعد ما يكون عن هذا الواقع. لا يمكن للمدعي العسكري العام، على غرار سائر الجهات الأخرى في المستوى السياسي والعسكري التي كانت ضالعة في تصديق السياسة الموصوفة في هذا التقرير، الاكتفاء فقط بوصف مجهود الجيش من أجل منع المسّ بالسكان المدنيين ضمن تجاهل المسّ الهائل الذي أصابهم.

ففي نهاية المطاف، لا يمكن للنقاش الدائر حول حرص إسرائيل على تطبيق أحكام القانون الإنساني الدولي أن يحتوي حجم الفظاعة، كما تنعكس في عدد القتلى والإفادات القاسية التي تتكرّر، والتي لم نعرض في هذا التقرير إلا قسمًا منها.

القتال ضدّ حماس يفرض حقًا تحدّيات بالغة الصعوبة: كيف يمكن في مثل هذه الظروف التمييز بين الأهداف العسكرية الشرعية وبين المواقع والأشخاص المدنيين؟ كيف يمكن الامتناع عن إلحاق الأذى بالمدنيين الذين لا يشاركون في القتال، إذا كان ناشطو حماس يطلقون القذائف على بلدات إسرائيلية من داخل التجمّعات السكنية؟ لا تدّعي منظمة بتسيلم أنها ستقدّم للحكومة الإسرائيلية وللجيش مخطّطات عينية واضحة لإدارة القتال في غزة: هذه ليست مهمّة منظمة حقوق إنسان. الحكومة هي التي تتحمّل مسؤولية العثور على طرق لمواجهة هذه التحدّيات، من خلال الحفاظ على البعد الإنساني وعلى أحكام القانون.

الواضح أنّ سياسة الاعتداء على البيوت من الجوّ والبرّ، والتي أدّت إلى انهيارها فوق رؤوس ساكنيها، ليست ردًّا شرعيًّا على هذه التحدّيات. وحتى لو اعتقد قباطنة الدولة والجيش أن تطبيق هذه السياسة سيؤدّي إلى وقف إطلاق القذائف على البلدات الإسرائيلية، فإنّ تطبيقها يظلّ محظورًا بسبب نتائجها المتوقّعة والفظيعة، وبسبب الريبة السوداء التي ترفرف فوقها.

⁶³ خطاب المدعي العسكري العام في مؤتمر جمعية القانون الجماهيري، تُنظر الحاشية رقم 47.